

المعتقدات الدينية في بلاد ما وراء النهر منذ عصور ما قبل الإسلام حتى بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

أ.م.د. نزار عبد المحسن داغر
كلية التربية للنبات - جامعة البصرة

اكتسبت بلاد ما وراء النهر دوراً مهماً في الحياة العامة للمجتمع المستقر هناك * ، لما تمتعت به من موقع جغرافي حيوي ونشاط اقتصادي متميز ، إذ كان لهما اثر كبير على طبيعة الحياة الاجتماعية على السكان المتعاشين فيها ، فنشطت وازدهرت حياة الناس وتعددت أهواؤهم وميولهم ومعتقداتهم الدينية مع اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ، إذ كان للقوى السياسية التي سيطرت على المناطق المحيطة بها ، تأثير واضح على تلك الميول ، فحاولت تلك القوى ، السيطرة على بلاد ما وراء النهر وتقوية نفوذها عن طريق نقل الأفكار والمعتقدات الدينية إلى هذه البلاد وبطرق متعددة ، في محاولة لكسب ميول شعب هذه المنطقة ، وتعزيز قدرات الكيانات أو القوى السياسية المتعددة فيها ، عسكرياً واقتصادياً ، جراء تطبيع علاقاتها مع مجتمع هذه البلاد ببحث معتقداتها وبالتالي السيطرة عليها عن طريق الدين الذي يُعد الأعمق رسوخاً ونفوذاً من التوسع السياسي واحتلال البلاد . ولا بد لنا عند دراسة المعتقدات الدينية لبلاد ما وراء النهر ، والممتدة من عصور ما قبل الإسلام مروراً بالغزو العربي الإسلامي لها خلال العصر الأموي وامتداده خلال العصور العباسية ؛ ان نقدم نظرة عامة ومختصرة عن الموقع ، والحدود ، والتبعية الجغرافية ، والتسمية ، والقوى السياسية التي تصارعت وأثرت على المنطقة ، لما لها من ارتباط وثيق بانسياب المعتقدات الدينية من محيطها الإقليمي ، وأثر القوى السياسية وصراعاها في ترسيخ بعض الأفكار والمعتقدات عن طريق التبشير مرة ، ومرة أخرى عن طريق القوة وفرض الهيمنة الدينية من خلال النفوذ المباشر على تلك البلاد ، والذي بدا واضحاً حتى أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، إذ اصطدم مع قوة أمراء الدولة السامانية الذين حكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان ما بين عام ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م وحتى عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م ، سيما وان عهد الأمير إسماعيل بن احمد ** (٢٧٩ - ٢٩٥ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٧ م) ، يعد فترة تثبيت ملك السامانية في خراسان وما وراء النهر ، الذي وحد أجزائها ، حتى شملت فترة حكم ابنه احمد (٢٩٥ - ٣٠١ هـ / ٩٠٧ - ٩١٣ م) ايضاً ، إذ عملاً بإخلاص للدولة العباسية ، ووفق المتطلبات الدينية التي تستهدف نشر الإسلام والجهاد في سبيله (١) .

التبعية الجغرافية والحدود :

اختلفت آراء (البلدانين) المسلمين في تبعية بلاد ما وراء النهر الجغرافية ، فقد أشار بعضهم إلى أنها تقع ضمن إقليم خراسان . فاليعقوبي مثلاً ، ذكر مدن ومناطق ما وراء النهر عند وصفه لخراسان والمشرق ^(٢) . كذلك قام البلاذري بضم ما وراء النهر مع خراسان ^(٣) ، وقد تبعه في ذلك كل من ابن رسته وقدامة بن جعفر ، عندما جعل ما وراء النهر وكوره * ضمن إقليم خراسان ايضاً ^(٤) . ويبدو ان هؤلاء البلدانين قد طرحوا منهاجاً وصفاً عن بلاد ما وراء النهر ، والبلدان الأخرى التي زاروها ، يعتمد في اقله على مشاهداتهم تلك البلدان ، وربما اعتمد بعضهم على تدوين ما سمعوه من أهلها من أخبار ، أو ما شاع بينهم في أمورهم وأحوالهم ، فآخذوا ما كان مقنعاً منها ، لكن هذه فيما نظن ، لا تتعدى في اقلها سوى انها معلومات عامة في وصف تلك البلاد ، ولا تستند إلى براهين عملية من الدقة والتحري ، كما ان البعض منهم فيما يظهر ، قد اعتمد أيضاً على ما حفظته الدولة العربية من سجلات ووثائق رسمية ، فدونها في مصنفاتهم ، لان تلك الوثائق تعد من الثوابت والشواهد ذات المدلولات الإدارية الأساسية التي يجب الاعتماد عليها وتثبيتها في مصنفاتهم دون الرجوع أو الاهتمام فيما يبدو ، على الثوابت الجغرافية أو الطبيعية التي كانت قائمة في تلك البلاد .

أما الاصطخري قد فرقها وفصلها عن خراسان ، عندما ذكر كورها بمعزل عن كور خراسان ، وقد برر هذا التقسيم بقوله " وليس في جمع الأطراف بعضها إلى بعض ولا في تعريفها كبير درك غير الإبانة عما في أعراضها من المدن والأنهار وموضوعات المدن في صفاتها ، فلا فرق بين الجمع في ذلك والتفريق إلا لسهولة العبارة عنها في التفصيل " ^(٥) . ومن ذلك نجد ان الاصطخري قد ميز بين خراسان وما وراء النهر على أساس فهمه للطبيعة الجغرافية المختلفة بين المنطقتين ، بجعله نهر جيحون * الأساس في التمييز بين جناحي خراسان الشرقي والغربي . ويبدو ان البشاري المقدسي ؛ خالف من سبقه من البلدانين ، فقد أشار إلى كور ما وراء النهر بمعزل عن كور خراسان ، قائلاً " وأما نحن فجعلناه واحداً ذا جانبين يفصل بينهما جيحون " ^(٦) . ومن الطبيعي ان نهر جيحون يعد حداً فاصلاً بين الأقوام الناطقة بالفارسية ، وبين الناطقة بالتركية ^(٧) ، ويبدو من ذلك ان التقسيم الذي أشار إليه البشاري المقدسي لا يعني تقسيماً إدارياً عنده ، أكثر منه تقسيماً جغرافياً تفرضه الطبيعة الجغرافية التي تفصل بين الطرفين . لذا نجد ان ياقوت الحموي قد أشار إلى ان ما وراء النهر ولاية برأسها ^(٨) . ويبدو ان كل من البشاري المقدسي ، وياقوت الحموي ، قد تبعوا الاصطخري في قسمة ما وراء النهر وفصله عن خراسان جغرافياً ، سيما ان الاصطخري ، قد وضع لما وراء النهر حدوداً منفصلة عن خراسان جغرافياً ، فقال " وأما ما وراء النهر ، فيحيط به من شرقيه فامر وراشت وما يتاخم الختل من أرض الهند على

خط مستقيم ، وغربيه بلاد الغزية و الخزلية من حدّ طراز ممتدا على التقويس حتى ينتهي إلى فاراب وبيسكند وسغد سمرقند ونواحي بخارا إلى خوارزم ، وشماليه الترك الخزلية من أقصى بلد فرغانة إلى الطراز على خط مستقيم ، وجنوبيه نهر جيحون " (٩) . وقد أشار الدكتور قحطان الحديشي ، إلى ان التقسيم الذي ذكره الاصطخري ، ينوّه فيه إلى المبدأ الإداري أكثر من الصورة الجغرافية ، إذ بدا ان الاصطخري قد أدرك ان التباين في الطبيعة الجغرافية والقومية بين خراسان وما وراء النهر ، قد حددتا هذا الانفصال الإداري حسبما يراه ، لكن هذا التباين والاختلاف كان جغرافياً أكثر منه إدارياً ، لاسيما إذا عرفنا ان ما وراء النهر كان عبر القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ؛ ضمن نفوذ ولاية خراسان من الطاهريين * والسامانيين (١٠) .

لقد ضمت بلاد ما وراء النهر عدداً كبيراً من الكور والمدن المشهورة كسمرقند وبخارى وخوارزم واشروسنة وفرغانة وغيرها ، فضلاً عن آلاف القرى والرساتيق المنتشرة في أطراف كورها ومدنها ، ولأهمية موقعها القريب والمتاخم لبلدان كثيرة تختلف عنها ثقافياً وجغرافياً وسكانياً ، لذا فان هذا الموقع سيكون موضع اتصال مع هذه الأمم والشعوب ، وبلا شك فان الأفكار والمعتقدات الدينية ستكون أكثر فاعلية في الانتقال من غيرها ، لأنها تستطيع ان تؤثر في توجهات المجتمع وتحركه بما تمتلكه من وسائل إقناع وتقريب الخالق للمعبود ، وبما ان منطقة بلاد ما وراء النهر تُعد من المناطق ذات النشاط الاقتصادي المتميز ، لذا فان هذا الأمر يجعله يلعب دوراً أساسياً تلتقي فيه الجماعات الدينية وتتحرك فيه مختلف الثقافات .

التسمية :

أطلق العرب المسلمون على الأقاليم والمناطق التي تقع وراء نهر جيحون اسم (ما وراء النهر) ، وعدّوه حداً فاصلاً بين خراسان وتلك المناطق (١١) . ويبدو ان تلك التسمية قد تزامنت مع عمليات الفتوح الإسلامية في إقليم خراسان خلال عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عام ١٨ هـ / ٦٣٩ م ، وربما انها تمت عام ٢٢ هـ / ٦٤٢ م (١٢) . إذ أمر الخليفة جنده بعدم عبور نهر جيحون عندما كتب إلى قائد الجيش هناك الأحنف بن قيس * محذراً إياه بالقول " فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه ... " (١٣) . ولعل الخليفة أدرك اختلاف خراسان جغرافياً وبشريا عن مناطق ما وراء النهر ، فالفرس في جانب خراسان ، والترك في الجانب الآخر من النهر ، وحرصاً منه على سلامة الجند من الخوض في تلك الأراضي الباردة والوعرة ، ووجود الترك وحشودهم القوية فيها ، أثر الخليفة عمر (رض) على عدم اجتيازه فاسموا تلك المناطق بـ (ما وراء النهر) ، أي ما وراء نهر جيحون . وقد ظل هذا الاسم قائماً في عهود التولية والمكاتبات الرسمية التي كان يحررها الولاة الأمويون والعباسيون في خراسان على حد سواء . وعلى الرغم ان هذه التسمية ظلت ملاصقة لهذه المنطقة طيلة العصور اللاحقة، إلا إننا نجد ان هناك تسميات آخر أطلقت عليها ، غيرانها لم تكن مشهورة ومعروفة آنذاك ، ولم تأخذ سوى بعداً

محدوداً اقتصر عند بعض البلدانين في مصنفاتهم فكان اسم (الصُغد أو السغد) من بين تلك التسميات التي كانت تطلق على ما وراء النهر ، فاليعقوبي عند كلامه عن ربع المشرق ومدنه ، أشار إلى الصُغد ، انه بلد واسع وله مدن جليلة ، افتتحها قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٤ م) ^(١٤) . كما ان البشاري المقدسي ، عندما تحدث عن جانب خراسان الآخر ، ذكر الصغد بانه ضمن هذا الجانب ، قائلاً بان في الصغد كلام كثير ^(١٥) ، وكأنه يعني بذلك إقليم ما وراء النهر ، رغم انه لم يصرح بذلك ، بل جعله من بين كور هذا الجانب ، ولعله لم يرد ان يعطي اسم الصغد على كل ما وراء النهر ، إذ انه أطلق اسم هيطل على جانب خراسان الآخر ^(١٦) ، في إشارة واضحة إلى بلاد ما وراء النهر ، وان الصغد ، هو الاسم الذي يضم سمرقند وبخارى ، وان سمرقند هي المدينة العاصمة (القصبه) لهذا الإقليم ^(١٧) . بينما جعل ياقوت الحموي الصغد ينقسم صغدين هما ؛ صغد سمرقند ، وصغد بخارى ^(١٨) ، إذ يبدو من كلامه ان الصغد يعد إقليماً واسعاً له مركز سياسي ويدعى سمرقند ، بينما كانت بخارى تمثل المركز الديني له ^(١٩) . ولعلنا نفهم من ذلك ان اسم الصغد ، قد اقتصر على المنطقة الخصبة فقط ما بين سمرقند وبخارى ، والمحصورة ما بين نهري جيحون وسيحون ، وان هذا الاسم فيما يبدو قد أطلق على أسس إدارية ، دون الأخذ بالحسبان النواحي الجغرافية والعوارض الطبيعية لهذا الجانب الذي يختلف حتى في تركيبته الاجتماعية والدينية عن جانب خراسان ، والذي يفصل بينهما نهر جيحون ، لذا فان العرب المسلمين ، كانوا يطلقون اسم ما وراء النهر ، على كل الأقاليم التي تقع شمال نهر جيحون ، كما سموه ايضاً (هيطل) * وهي تسمية كانت تطلق اعتباطاً ، من قبل بعض البلدانين المسلمين - من العرب - خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، على جميع الشعوب القاطنة وراء نهر جيحون ^(٢٠) ، وعلى ذلك جرى البشاري المقدسي في استعماله إياه عند تقسيمه لإقليم المشرق ، إذ جعله جانبين يفصل بينهما جيحون ، هما جانب خراسان ، وجانب هيطل ^(٢١) ، إلا ان اسم ما وراء النهر ظل يُتداول في أغلب المصنفات الجغرافية والتاريخية ، وبات أكثر شهرة وحضوراً من المسميات الأخرى التي أطلقت عليه .

الجانب السياسي وأثره في نشر المعتقدات الدينية :

لم تشهد مناطق ما وراء النهر ، ومنذ أقدم العصور ، ظهور حكومة مركزية قوية استطاعت ان تفرض هيمنتها ، وتحكم سلطتها على شعوب هذه البلاد ، بل على العكس من ذلك ، كانت هناك صراعات محلية تمثلت بالممالك والكيانات السياسية المتصارعة مع بعضها ، إذ ظهرت عقب غزو الاسكندر المقدوني بلاد ما وراء النهر بعد عام ٣٣١ قبل الميلاد . وعلى الرغم من قلة المعلومات عن الأثر الديني لهذا الغزو ، إلا انه دون شك ، سترك أثراً ثقافياً وفكرياً في هذه المنطقة شأنه شأن بقية التيارات السياسية التي سيطرت على الشعوب عبر العصور التاريخية ، سيما وان غزو الاسكندر المقدوني بلاد ما وراء النهر ، قد مهد الطريق في مزج الأفكار والمعتقدات الجديدة ، إلى جانب المعتقدات

الأخرى المنتشرة بين شعوب المنطقة ، فقد كان الاسكندر يعتقد ان رسالته السماوية تحتم عليه الجمع بين قارتي أوروبا وآسيا تحت سلطته ، ويمكن ان نعزو ذلك إلى مؤثرات واضحة للنزعة التوحيدية في الدين التي كانت رائجة آنذاك عند اليونانيين ، ومن المرجح ، ان الاسكندر كان ينظر إلى المعتقدات والآلهة عند الشعوب التي خضعت له ، أنها رموزاً أو مسميات ، فقط لتلك القوة العظمى التي تسوس الكون ^(١٢) ، ولعل من آثار هذا الغزو ، ان وجدت حضارة جديدة ذات طابع مختلف تركت أثرها بين الشعوب ، نتيجة امتزاج الحضارة اليونانية ، بالأفكار والمعتقدات لدى الشعوب الشرقية القديمة ^(١٣) بما فيها شعوب ما وراء النهر . ولعل محاولات التغلغل إلى المجتمعات عن طريق الدين ، يُعد قوة مؤثرة وفعالة في السيطرة على الشعوب ، لاسيما وان الغريزة الدينية ، مشتركة بين الأجناس البشرية ، وان هذه الغريزة تقوى داخل الإنسان عندما يشعر بالضعف تجاهها ^(١٤) . ويبدو ان الفلسفة والمعتقدات الدينية اليونانية ، تركتا أثراً في شعب ما وراء النهر ، فهما ربما سمحتا للمعتقدات الأخرى ان تنتشر داخل المجتمع ، وأنهما قد توحدتا مع المعتقدات الشرقية الأخرى ، ونتج عن ذلك تشابك كبير ومتنوع ، فسح المجال للبوذية ، بوصفها فلسفة دينية ، ان تتغلغل إلى مناطق ما وراء النهر ^(١٥) . إلا ان ذلك الأمر ، لم يعزز الوحدة الدينية ، أو يوجد ديناً رسمياً للمنطقة ، فالفترة التي تلت عهد الاسكندر ، شهدت ما وراء النهر نزاعات إقليمية كبيرة ، انقسمت على أثرها إلى ممالك وإمارات صغيرة ، كان لكل منها ملكها أو أميرها الخاص ، فاعتقدت واعتنقت كل مجموعة منهم دينها أو معتقدها الخاص بها ، فتعددت المعتقدات ، كالبوذية ، والوثنية ، والزرادشتية ، وغيرها ، لذا فمن الصعب القول بوجود دين رسمي للمنطقة خلال هذه الفترة ، وفقاً للمفهوم الدقيق لهذه العبارة ^(١٦) . كما ان آثار الغزو المقدوني للمنطقة ، وما صاحبه من إحراق المقدسات وأماكن العبادة وبعض النصوص الدينية ، قد خلط الأفكار والعقائد فيما يبدو ، لتظهر ديانة جديدة ، هي مزيج من أفكار الديانات السابقة وعقائدها ، سميت بالديانة الزرادشتية ، تلك الديانة التي استطاعت ان تحكم منطقة واسعة ، لتشمل ما وراء النهر ، وظلت فيه فترة طويلة ^(١٧) ، لاسيما ان الزرادشتية ، قد وجدت لها مكاناً آمناً في بلاد ما وراء النهر ، حقق لها انتشاراً واسعاً إلى جانب المعتقدات الأخرى ، التي ظلت منكمشة وغير فاعلة في حياة مجتمع ما وراء النهر ، بسبب تعاليمها الغريبة عن طبيعة هذا المجتمع ، التي يبدو انها لم تتفاعل معه ، بينما نجحت الزرادشتية في ذلك ، بسبب جانبها الأخلاقي ، والحث على العدالة ، والعمل على تنمية النوع البشري وتقويته ^(١٨) . وهذا بطبيعته ، يتناغم وطبيعة شعب هذه البلاد ، الذين يميلون إلى فعل الخير ، وإقامة العدل ، وتعظيم لرجال الدين ^(١٩) . لذا فان الزرادشتية حققت هذا الانتشار حتى بين الطبقات العليا الحاكمة . وقد أشار المسعودي إلى ذلك عندما ذكر بان أكثر ملوك ما وراء النهر كان يعبد النار ويتمجس * ^(٢٠) ، دلالة على انتشار هذا المعتقد وقوته السياسية المتمثلة بالحكام الذين اعتنقوه . وهذا الأمر يجعلنا ندرك ، ان الثقافة الفارسية قد بدأت تحل محل المدنية الهندية وأفكارها ومعتقداتها المتمثلة بالبوذية ، التي لم تكن لها قوة سياسية تفرض

انتشارها ، بل تغلغت إلى بلاد ما وراء النهر عن طريق المبشرين ، الذين لم يكونوا يمثلون فيما يبدو إلا فئة اجتماعية ليست ذات قوة سياسية . بينما حققت الزرادشتية التي تبناها ملوك الدولة الساسانية ، قوة أكبر ، حتى ان الترك بوصفهم أغلبية اجتماعية في بلاد ما وراء النهر ، قد وقعوا تحت تأثير المدنية الفارسية أكثر من التأثير الهندي ، وانهم دخلوا بصورة واسعة في المعتقد الزرادشتي ، وهذا يعني ان الساسانيين ، كانوا يؤثرون بحضارتهم المدنية ، وهيمنتهم الاقتصادية على جيرانهم الترك ، رغم عدم تحقيق انتصارات عسكرية عليهم ^(٣١) ، إلا ان الانتصار الحقيقي للساسانيين المتمثل بمعتقدهم الزرادشتي ، قد بدأ يتحقق في بلاد ما وراء النهر ، وأخر عهدهم ، عندما أخذت البوذية بالتقهقر والانحسار مع انها سبقت الزرادشتية في دخولها تلك البلاد ، ومن ملامح هذا الانتصار ، ما أشار إليه بارتولد ، انه لم تُشاهد خلال تلك الفترة ، أية معابد خاصة للبوذيين في بلاد ما وراء النهر ، رغم ازدهارها آنذاك ، وان الديرين البوذيين في سمرقند ، كانا خاليين ، ويُعلل ذلك ، ان الزرادشتيين هناك لم يسمحوا للبوذيين بممارسة شعائره ومعتقداتهم الدينية ^(٣٢) ، وهذا دليل على القوة السياسية التي كان يتمتع بها الزرادشتيون ، على عكس البوذية ، التي لم تمتلك تلك القوة مع سعة انتشارها ، والقوة الدينية التي تسنده المتمثلة بالهند ، والهيمنة السياسية التي تبنته ، وهي الصين ، إلا ان الصينيين ، ليسوا بالشعب المغرم بالمعتقدات والعبادة ^(٣٣) ، وان اتجاههم كان على ما يبدو واقعياً يتجه إلى تعزيز قوتهم الاقتصادية ، والسيطرة على بلاد ما وراء النهر بقوتهم العسكرية ، أكثر من التأثير الديني ، فلا شك فان البوذية ستضعف قوتها الدينية ، إذا لم تُسند بقوة سياسية مؤثرة ، بينما نجد الزرادشتية ، قد حققت ذلك ، إذ ان الساسانيين كانوا يعدونها ديناً قومياً لهم ، يجب الدفاع عنه ونشر معتقداتها بكل الوسائل . ومن خلال ذلك يمكن القول ، ان انتشار المعتقدات الزرادشتية بين الترك في بلاد ما وراء النهر قد جرى بوسائل مختلفة ، أما عن طريق المبشرين ، أو التجار ، أو الهيمنة السياسية ، إلا ان هذا الانتشار ، حقق أول تقارب بين الفرس الآريين ، وبين الترك التورانيين ^(٣٤) . وقد استغلت الزرادشتية الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر فحققت انتشاراً أوسع ، إذ وجد مبشروها ، ان ملوك ما وراء النهر ، كانوا في قتال دائم وصراعات وتفكك سياسي ، تحكمه السيطرة والتوسع على الأراضي الخصبة ، فضلاً عن ذلك ان هؤلاء ، لم يكن لهم دين موحد يجمعهم ، إذ كان لكل منهم دينه أو عبادته أو معبده الخاص به ^(٣٥) . وهذا يجعل الزرادشتية ، معتقداً قومياً لشعب موحد ، يعطي الفرصة لاستغلال هذا الصراع والتفكك ، لتدخل بقوتها إلى بلاد ما وراء النهر . لكنها واجهت مشاكل سياسية أخرى ، أضعفت من قوتها ، فبعد ما استطاع اردشير الأول بن بابك - مؤسس الدولة الساسانية - ان يتخذ الزرادشتية ديناً رسمياً لدولته ، وحاول ان ينشر هذا الدين بدعوة إحياء الدين المجوسي القديم لاسيما في المناطق التي كان فيها تأثيره ضعيفاً وبالأخص ، في بلاد ما وراء النهر ، وقد نجح في مسعاه هذا ، إلا ان تحكم رجال الدين الزرادشتيين على جميع مظاهر النشاط البشري ، والحياة الاقتصادية ، ومشاركتهم أصحاب الشأن والملوك

في الحكم ، قد سببت مشاكل كثيرة ، مهدت الطريق للمعتقدات الأخرى ، ان تتسلل إلى حياة الشعوب ، التي ضاقت ذرعاً باستبداد الزرادشتية ، وتحكم أصحابها ، فكانت المانوية - كمعتقد جديد - قد لاقت رواجاً كبيراً عند الشعوب المقهورة ، أو التي كانت تتجه اتجاهها روحياً صرفاً ، يجنح إلى شيوعية الثروة والأسرة وعدم استبدادها بيد فئة معينة ^(٣٦) ، وهذا ما سبب الخلاف بين مؤسسيها (ماني) ، وبين بعض ملوك الدولة الساسانية ، إذ ساءت العلاقة بينه وبين الملك سابور الأول بن اردشير (٢٤١ - ٢٧٢ م) ، ثم قُتل واضطهد أصحابه في عهد الملك بهرام بن هرمز (٢٧٣ - ٢٧٦ م) ^(٣٧) ، إذ يبدو ان تعاليمه قد شكلت خطراً على فلسفته التي راهن عليها في استمرار مملكته المقاتلة ، على عكس تعاليم زرادشت ، لذا هرب معظم أتباعه إلى مناطق متفرقة ، ووصل بعضهم إلى بلاد ما وراء النهر ^(٣٨) . وقد أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع ، لاسيما مع من اعتنق البوذية ، إذ كانت بين المعتنقين ، قواسم مشتركة في ازدياد الوجود المادي ، وان (بوذا) كان احد أسلاف (ماني) ^(٣٩) ، لذا فقد آمن بهذا المعتقد الجديد عدد من ملوك ما وراء النهر ، وانتشر بشكل واسع في مدينتي ، الشاش وسمرقند ، إذ كانت الأخيرة ، تتفوق على غيرها من مدن ما وراء النهر بكثرة المانويين فيها بدرجة كبيرة ، وكانوا ذوي سلطة وأصحاب نفوذ ^(٤٠) إذ يبدو انها كانت تستند إلى حليف قوي من بعض القبائل التركية التي اعتنقت هذا المعتقد ، وربما من بعض ملوك ما وراء النهر ، بل وحتى الصين ، ولعل تعاليم المانوية ، التي تستند على أسس أخلاقية ، وتحرم قتل الإنسان ، كانت الدافع الكبير في اعتناق الترك لها على نطاق واسع ^(٤١) ، غير انها لم تمتلك قوة سياسية واضحة أو مؤثرة ^(٤٢) ، ولربما يعود ذلك إلى انها كانت غير واضحة الشخصية في الجانب الديني ، وانها جمعت أفكار ومعتقدات أديان آخر ، كما ان أتباعها لم يكن لهم معبداً خاصاً بهم ، اذ كانوا يتخذون اسم البوذية ، ويضللون الناس بتعاليمهم ، الأمر الذي جعل رجال الدين البوذيين يتصدون لهم ^(٤٣) ، فانحسرت المانوية بدرجة كبيرة بعد ان فقدت التأييد السياسي والديني لها ، لتبرز من جديد البوذية ، التي حاول أتباعها ان يفهموا طبيعة بلاد ما وراء النهر الاجتماعية ، ليتمكنوا من توسيع هذا المعتقد بصورة اكبر ، لذا أخذت البوذية تتعاون تعاوناً كاملاً مع النظام الملكي والقبلي ، الذي كان سائداً على بلاد ما وراء النهر ، وبواسطة هذا الارتباط بين السياسة والدين ، انتشرت البوذية وكثر معتقوها ^(٤٤) . إلى ان هذه الطريقة التي تعاملت فيها البوذية مع المجتمع في بلاد ما وراء النهر ، سوف تؤثر سلباً عليها ، فبما انها تدعو إلى التأمل وصفاء الذهن والروح ، وهذا يتعارض مع طبيعة الترك المعروفين ببأسهم وشجاعتهم وقوتهم العسكرية ، لذا اعتقد بارتولد ان الترك في بلاد ما وراء النهر ، قد أضعفت البوذية الروح العسكرية لديهم ، بل جعلتهم يتراجعون في الحصول على الانتصارات في حروبهم التي يخوضونها باستمرار ^(٤٥) . غير ان هذا الأمر في ما يبدو ، لم يكن هو وحده سبباً في انهيار قوة الترك وهزائمهم المتكررة ، إذ نجد ان غياب الوحدة الدينية بتعدد الأديان ، قد خلق منافسة وصراعات داخل المنطقة ، أضعفت وحدتها السياسية والدينية ،

فكانت الكيانات والممالك الموجودة في بلاد ما وراء النهر تعيش حالة من عدم الاستقرار الديني ، أضعفت من قوتها في مواجهة الأخطار الخارجية ، لذا فإن العرب المسلمين قد تنبهوا إلى هذا الأمر ، ففي عمليات الفتوح خلال العصر الأموي في بلاد خراسان وما وراء النهر ، استغلوا التفكك السياسي والديني في حياة هذه الممالك ، فكان هذا الأمر في صالحهم لنشر الإسلام والسيطرة على بلاد ما وراء النهر ، عندما تكلفت جهود قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي تولى خراسان عام (٨٦ هـ / ٧٠٥ م) فمد نفوذ الدولة العربية الإسلامية إلى بلاد ما وراء النهر ، واتخذ صراعه مع أتباع بوذا وزرادشت ، صورا متعددة ، واستغرق زمناً طويلاً ^(٤٦) ، حتى استطاع ان يفرض الإسلام وانضمت إليه أعداد هائلة من الترك . وقد علل احد الباحثين هذا الأمر قائلاً ؛ بان التقاليد الدينية في بلاد ما وراء النهر لم تكن من العمق والتأصل ، ولم يكن لها من الجذور ما يمددها بالمقاومة ، كما ان غلبة القبائل التركية على هذه المنطقة ، وتوسعها فيها ، كان يعطي الوثنية فيها طابعاً بدائياً ، مكن الإسلام ان ينفذ إلى تلك البلاد دون عناء كبير ^(٤٧) . غير ان إجراءات الأمويين فيما بعد ، قد أبطأت انتشار الإسلام ، وأطالت الحرب بين العرب والترك ^(٤٨) ، لاسيما في بعض إجراءاتهم المالية تجاه المناطق المفتوحة ، لذا عندما تولى عمر بن عبد العزيز خلافة الدولة الأموية (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧١٩ م) قام بخطوة كبيرة ، تركزت في تغليب الفكرة الإسلامية ، لتحسين صورة الدولة ، والتضحية بكل مظاهر الغلبة والسلطان ، الذي عده كسباً للمسلمين ، فقد كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، حتى أسلم بعضهم ^(٤٩) ، وهذا يعني ان الدعوة إلى الإسلام ونشره قد أسندت من قوة سياسية تدعمها بكل السبل والإمكانات المتاحة ، ومن دون شك ، فان ذلك يعطي الهيبة والقوة للدين الإسلامي عن طريق بعض الامتيازات وأساليب الترغيب التي أعطيت للذين يدخلون فيه ويعتقون مبادئه وأفكاره . ويبدو ان إجراءات عمر بن عبد العزيز ، قد رسخت الإسلام بصورة طوعية بعيدة عن القوة والغلبة ، إذ لم نلاحظ في عهده أي صراع ديني بين الإسلام والمعتقدات الأخرى في بلاد ما وراء النهر ، إذ يبدو انها ، لم ترغب في مواجهة الدين الإسلامي الذي نفذ هناك ، ما دام لا يؤثر في امتيازاتها ، أو يحد من حرياتها الدينية ، لذا فان امتداد النفوذ العربي الإسلامي في بلاد ما وراء النهر ، لم يواجه مقاومة من الناحية الدينية ^(٥٠) . إلا ان التدابير الإسلامية لم تستمر بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقد واجه الأمويون مقاومة سياسية عنيفة تمثلت بحركات الارتداد عن الدين الإسلامي ، ومقاومة الفاتحين الجدد بسبب سوء معاملة العمال والولاة لأهالي تلك البلاد ، ونزوعهم إلى ترك ما تم الاتفاق عليه سابقاً ، وهذا بلا شك سوف يؤثر على قيم الإسلام في نفوس هؤلاء الترك ، ويرويه بغير صورته الحقيقية ، وانقطاع أواصر الثقة بين الإسلام ومعتقي الشرائع والمعتقدات الأخرى ، لذا فان الإصلاحات التي قام بها نصر بن سيار * ، خلال ولايته على خراسان وما وراء النهر (١٢٠ - ١٣٢ هـ / ٧٣٧ - ٧٤٩ م) ، لم تنجح بصورة واسعة ، إذ بقيت مناطق كثيرة خارج نطاق السيطرة الأموية ، وهذه المناطق في ما يبدو ، ظلت فيها نسبة المسلمين قليلة ،

إلى جانب المجوسية الزرادشتية ، التي كانت واسعة الانتشار ^(٥١) ، ومثال ذلك اشروسنة التي ظلت على وثبيتها ، رغم إصلاحات نصر تجاهها ، إذ ان مجتمعا كان يرفض الإسلام وثقافته الجديدة عليه ^(٥٢) . وعندما تسلم العباسيون الخلافة عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م ، نجدهم قد اهتموا ببلاد ما وراء النهر ، اهتماماً كبيراً وحاولوا فرض سلطتهم الدينية ، التي قامت عليها دعائم دولتهم ، لذا كانوا من أنشط الخلفاء مقارنة بمن سبقهم ، في الدعوة إلى ترسيخ سياستهم وفكرهم الديني ^(٥٣) ، لاسيما بعدما عرضوا أنفسهم ، أنهم حماة للإسلام والمسلمين ، ولربما استطاع العباسيون ، ان يدركوا ضعف الشعور القومي لدى الترك ، تجاه ديانتهم التي يعتقدونها ويؤمنون بها ، مما عزز قوة العباسيين وفرض النفوذ الديني بين أهالي ما وراء النهر ، عن طريق اتخاذ سياسة دينية جديدة ، تقوم على أساس دمج الدين بالسياسة ، متظاهرين بانهم موحدون للدين ، بل ومدافعون عن حقوق الرعية ، من خلال توحيدهم لسلطة الدولة العباسية ^(٥٤) ، ويبدو ان جهودهم السياسية والعسكرية في الدفاع عن بلاد ما وراء النهر من الأخطار الخارجية والداخلية ، كخطر الصينيين ، والترك في آسيا الوسطى ، والأمراء المحليين ، قد أتت ثمارها . إذ علا شأن الحكم العباسي في نظر أهالي ما وراء النهر ، ومكن بصورة واضحة ، الحركة الإسلامية ان تمضي في طريق النجاح ، وحل المشاكل ، وبالتالي استمالة شعب ما وراء النهر في الدخول إلى الإسلام وتمكين الحكم العباسي من الرسوخ في مناطقهم ، لذا فقد كانت سياسة الخليفة محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥ م) في المرونة والصرامة ، حققت بعض التوازن المطلوب لاستقرار الحكم العباسي واستمراره هناك ، إذ أرسل الخليفة إلى ملوك ما وراء النهر ، يطلب منهم الخضوع لسلطانه ، فدخل أغلبهم في طاعته ^(٥٥) ، وان سياسة المهدي هذه ، قد انتفع منها خلفاؤه الذين أعقبوه في حكم الدولة العباسية ، ولعل دعوة الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) ملوك ما وراء النهر ، للإسلام أو محاربة من يرفض ذلك ، أو استمالتهم بالرغبة بالدين مقابل الصلات والأرزاق ^(٥٦) ؛ كانت ذات اثر بالغ في دخول كثير منهم الإسلام . ولعل أهالي ما وراء النهر ، قد أيقنوا بسيادة الدين الجديد وقوة دعاته المتمثلين بالخلفاء العباسيين ، لذا انخرط عدد كبير من الناس في جيش الدولة العباسية ونظمها الأخرى ، ولهذا أثر كبير في اعتناقهم الإسلام . ففي خلافة المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤١ م) ، نجد ان معظم أفراد الجيش في الدولة العباسية ، كانوا من أهل ما وراء النهر ، من السغد واشروسنة والشاش ، كما حضر ملوكهم إلى بلاط الخليفة العباسي ، فغلب الإسلام على ما هناك ^(٥٧) . لذا يمكننا القول ، ان الدين الإسلامي في بلاد ما وراء النهر ، كان أكثر قوة وتأثيراً في نفوس الأهالي والطبقات الاجتماعية الأخرى ، وانه استطاع ان يزيح آثار المعتقدات الوضعية من نفوسهم ، ولعل قوة التأثير الروحي التي يمتلكها الإسلام ، بمبادئه وتعاليمه التي تحت على المساواة والعدل ، على خلاف الزرادشتية ، التي جعلت من طبقة رجال الدين هي الطبقة ذات المنافع والنفوذ الأكبر . كما ان الإسلام عزز روح التفاهم وألغى الطبقة لاسيما بين رجال الدين ، بل احترم رغبة شعب

ما وراء النهر في الاستقلال والمطالبة بالحكم الذاتي ، إذ سمح العرب المسلمون لمملوكهم ان يحكموا شعبهم ، دون ان يعينوا لهم والياً عربياً ، كاستقلال الذي احتفظ به (طغشاد) - ملك الترك - على مدى ثلاثين عاماً ، حتى وفاته ، نظير اعتناقه الإسلام^(٥٨) . ومن اللافت للنظر أيضاً ، ان العباسيين عندما تسلموا الخلافة ، اعتمدوا في سياستهم الوحدوية ، على الدين بصورة كلية ، الأمر الذي جعل الدين الإسلامي ، هو العصبية الوحيدة في الدولة ، ومن خلال هذه السياسة ، مزجت العنصر العربي ذا العصبية القديمة ، مع العنصر الجديد المتمثل بالترك ، رغم اختلاف الغرض الذي كان يرمي اليه كل منهما ، وهذا العمل كله ، كان من اجل وحدة الدولة وحفظ الأمن فيها^(٥٩) . ولعل العباسيين ، قد أفادوا من الإجراءات التي قام بها الأمويون في فرض الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، لاسيما حماية أهلها من عدوان الترك الشرقيين ، القادمين من أواسط آسيا تجاه الغرب ، إذ ان هذا الأمر كان ضمن أبرز انجازات الأمويين هناك ، والتي تمكنوا من خلالها ان تسود سياستهم و يترسخ نفوذهم في بلاد ما وراء النهر عن طريق الدعوة إلى الإسلام ، ونشر الثقافة العربية ، وبناء المساجد ، وتوطين القبائل العربية هناك^(٦٠) ، كل ذلك أفاد منه العباسيون في ترسيخ قوتهم أيضاً ، ونفوذ سلطانهم إلى بلاد ما وراء النهر ، لاسيما واننا لا نلاحظ أي دور يذكر قام به رجال الدين في تلك البلاد ومن مختلف المعتقدات ، في معارضة أو مقاومة سياسة العرب من العباسيين^(٦١) . ولعل اهتمام العباسيين الكبير ببلاد ما وراء النهر ، والدفاع عنه ، والازدهار الاقتصادي الذي مرت به دولتهم خلال عصرها الأول* (١٣٢ - ٢١٨ هـ / ٧٤٩ - ٨٣٣ م) ، قد وفر للناس هناك مجالات كبيرة للربح^(٦٢) ، وأتاح للكثير منهم ، اعتناق الإسلام ونشره ، ليسهل التعامل مع ثقافة وفكر الدولة الجديدة . وخلال الفترة التي امتدت منذ عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤١ م) ، وحتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي - فترة دراستنا - يمكن القول ان أهل ما وراء النهر كانوا من المسلمين الجيدين ، وهم أنفسهم بدأوا رعاة للعقيدة الإسلامية مع جيرانهم الترك تحت ظل الولاة السامانيين^(٦٣) .

أبرز المعتقدات الدينية: مما يلاحظ في المعتقدات التي ظهرت في بلاد ما وراء النهر ، ان أفكارها وثقافتها الدينية ، قد تأثرت بالمعوقات البيئية ، والبشرية الخاصة بهذه المنطقة ، التي تميزت بعدم الانتظام السياسي ، ووجود التنافس والصراع الذي طغى بين فئاتها الاجتماعية ، وقبائلها الكثيرة ، فكان هذا الأمر من أبرز مظاهر المجتمع فيها ، كما ان شعور الإنسان الغريزي ، تجاه الخوف من المجهول ، أدى إلى احترامه لكل القوى التي تؤثر في حياته ، دون ان يتعرف على طبيعتها . ومن هذا الشعور نشأت الأديان الوضعية ، التي لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان ، بوجود قوى تحيط به وتؤثر فيه^(٦٤) ، ولربما كان القاسم المشترك لتنوع المعتقدات واختلافها ، بغض النظر عن التفاصيل الثانوية ، أو الشعائر الخارجية ؛ هو الدعوة إلى أنبل القيم الأخلاقية ، ووضعها في الحياة موضع

التطبيق ، سواء كانت هذه الأديان سماوية ، أم انها من ابتكار الإنسان ، فهي لا تختلف فيما بينها ، لما تدعو إليه من الفضائل ، وان اختلفت في أشكال العقيدة وألوانها ^(٦٥) . ومن أبرز هذه المعتقدات : -

أولاً / المعتقدات التي انتقلت إلى بلاد ما وراء النهر من الهند

١ - البوذية:

وهي إحدى المعتقدات الوافدة على مجتمع ما وراء النهر ، والتي تسربت إليه من المناطق المجاورة لهذه البلاد ، بحكم موقعها ، والتصاقها مع شعوب ومجتمعات المجاورين لها وبطرق متنوعة . إذ ان اختلاط الشعوب ، والأجناس البشرية في بلاد ما وراء النهر ، قد أتاح أرضاً صالحة لمزج المذنيات والمعتقدات معاً . لقد كانت الحدود الجنوبية لأرض ما وراء النهر ، متاخمة للهند ، وعن طريقها تغلغت البوذية . أما تاريخ هذا النفوذ ، وعهده فقد كانت حسبما أشار كرستسن خلال العهد الإغريقي ، إذ شاع المعتقد البوذي عن طريق المبشرين إلى أغلب أقاليم آسيا الوسطى ^(٦٦) ، ودعت إلى إلغاء الطبقة بين الشعوب ، فكان ذلك مدعاة إلى ان يتبع هذا المعتقد ، كثير ممن انحطت طبقاتهم ، أو ممن كانوا يشعرون بثورة ضد الطبقات المتعددة والمتفاوتة السيادة ^(٦٧) . ويبدو ان البوذية قد استغلت أحداث غزو الاسكندر المقدوني لبلاد ما وراء النهر ، والفوضى السياسية والنزاع الذي أعقب تلك الحملات بين الترك أنفسهم ، وتشتت كلمتهم وقوتهم ، فوجدت البوذية ، فرصة ذهبية للنفوذ والتبشير وتوسيع نطاق المؤمنين بها ، لاسيما وانها وجدت ما يسهل أمرها فيما تدعو إليه ، فالطبقة الاجتماعية كانت مستشرية في مجتمع تلك البلاد ، والملوك والأمراء كانوا يمارسون الاستبداد بحق رعيتهم ، والامتيازات الكبيرة ، كانت تمنح لهم دون الفئات الاجتماعية الأخرى ، لذا فان البوذية ربما وجدت سبباً مباشراً ، لتقنع الجماهير بالتمسك بها واعتناقها ، لتخلصهم من سيادة الطبقة الحاكمة ، التي كان ينظر إليهم على انهم أرباباً وآلهة ^(٦٨) . إلا ان البوذية لم تقلح كثيراً في مسعاها هذا ، إذ انتشرت بين عدد محدود من القبائل ، ويعود ذلك إلى انها لم تكن ذات قوة سياسية يحسب لها ^(٦٩) ، فضلاً عن ذلك ؛ ان البوذية بما تؤمن به من أفكار ومعتقدات خرافية ، لم تستطع ان تتفوق على المعتقدات الخرافية لدى هذه الشعوب ، أو تنافسها ^(٧٠) . كما انها - البوذية - أرادت فيما يبدو ، ان تصنع مجتمعاً غير محارب ، يميل إلى التأمل وصفاء الروح في عبادته ، وهي بذلك لم تنفهم طبيعة مجتمع ما وراء النهر ، القائم على القوة والغلبة واحترام ملوكهم ، والاعتداد بالفروسية ، وانه مجتمع تعلم أفراده ، على البأس والجرأة والشجاعة والإقدام في الحروب ^(٧١) ، وقد أشار بارتولد إلى ذلك بدقة ، عندما ذكر ان البوذية لم تنتشر سوى عند قبائل الغز ، لكنهم ما لبثوا ان تخلوا عنها ، عندما وجدوا فيها ، انها ترقق شمائل الإنسان ومزاجه ، وانها أضعفت الروح العسكرية عندهم ^(٧٢) . ويبدو ان هؤلاء الغز ، قد تأثروا بالبوذية خلال تحركهم للرعي ما بين نهري سيحون في الشمال الشرقي لبلاد ما وراء النهر ، وجيحون ، المتاخمة لأرض الهند ، جنوباً ، فاحتكوا بالمبشرين لهذا المعتقد ، ونقلوه إلى داخل بلاد ما وراء النهر ، وربما كان اعتناق (الغز) البوذية ، هو ما

عزز علاقتهم بالصينيين ، الذين يعتنقونها أيضا ^(٧٣) ، والتي يبدو انها توافقت مع النظام الملكي الذي كان سائداً في حياتهم العامة ، وبواسطة هذا الارتباط بين السياسة والدين ، تعزز موقف البوذية ، فكثر أتباعها ، وشهدت تطوراً واضحاً في ثقافتها ، فأخذ أنصارها ينشرون تراثها ، ويبنون معابدها ^(٧٤) ، ونجد ذلك واضحاً ، من خلال مراسم الاحتفال بزواج احد أمراء (بخارى) من ابنة ملك الصين ، إذ نقلت الزوجة معها إلى مقرها الجديد ، بعض الأصنام البوذية ، ونصبتها في مدينة رامثن * ، لتبني معبداً فيها ^(٧٥) . وقد ظلت آثار ومظاهر البوذية في تلك المدينة قائمة فترة طويلة ، ومؤثرة في نفوس بعض السكان ، ونعتقد انها اقتصرت على بخارى ، التي كانت المركز الديني لبلاد ما وراء النهر ، فقد كانت الأصنام تباع في احد أسواقها وبأعداد كبيرة ، وكان ملك بخارى يأمر النجارين والنقاشين بنحت الأصنام من العام إلى العام ، ويحضرونها إلى هذه السوق التي تعقد مرتين في العام ، ويبيعونها ، فيتهافت عليها الناس ، ويشترونها ، والغريب في الأمر ، ان مظاهر التأثير بالبوذية ظلت قائمة عند الناس حتى منتصف القرن الرابع الهجري تقريباً / منتصف القرن الخامس الميلادي ، إلا انه كان تقليداً ، أو عرفاً ساد بينهم ، وليس اعتقاداً منهم بها ، حسبما أشار النرشخي ، لاسيما وان موضع هذا السوق قد تحول فيما بعد إلى احد المساجد المهمة في بخارى ، خلال ذلك القرن ^(٧٦) . ويبدو ان مظاهر الاعتقاد والعبادة للبوذية قد خفت حدته منذ ان فتح قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد ما وراء النهر عام ٨٨ هـ / ٧٠٦ م ، فأزال الأصنام وهدم معابد البوذيين ، واستحوذ على ما فيها من تحف وأموال ، وأظهر الإسلام بتلك البلاد ، بعد عناء كبير ، وغرسه في قلوبهم ، وشدد عليهم بكل الوسائل ، وألزمهم بأحكام الشريعة الإسلامية ، وبنى المساجد ، حتى أزال آثار كفرهم ورسوم وثنياتهم ^(٧٧) . ولعل أهالي ما وراء النهر ، قد رضوا ورضخوا للإسلام ، نتيجة إجراءات قتيبة بن مسلم الشديدة عليهم ، فضلاً عن انهيار ثقافتهم بما كانوا يعبدونه من أصنام ، التي أزاحها وكسرها قتيبة أثناء حملته في بخارى ، ولاعتقاد الناس ، ان من يمس آلهتهم ويهتك حرمتها ، سيهلك ، لكن بان لهم عكس ذلك ، فتدافعوا إلى اعتناق الإسلام ^(٧٨) ، لاسيما وان غرس الثقافة الإسلامية من لغة ودين في بلاد ما وراء النهر قد عززت الدور الإسلامي ورسخت حضوره وامتداده قرون طويلة في تلك البلاد ، فما عادت البوذية فيما يبدو من المعتقدات التي يُغرم بها أهل ما وراء النهر ، فتركوها وتعلقوا بالإسلام ذو الحضارة والمدنية ، أملا في الحصول على المعارف والمكاسب والنفوذ.

٢ - السمنية *

وهي من المعتقدات التي دخلت بلاد ما وراء النهر عن طريق الهند أيضاً ، وكانت واسعة الانتشار بشكل كبير وفي مناطق مختلفة ، حتى وصلت حدود بلاد الشام ^(٧٩) ، ولكن على الرغم من انتشارها الواسع ، إلا ان المعلومات عنها قليلة ، ولا نعرف الكثير عن طرق انتشارها ، التي يبدو انها

كانت كالبوذية ، انتقلت إلى بلاد ما وراء النهر ، أما عن طريق المبشرين بها ، أو القبائل المتنقلة . أما أصل هذه الديانة ، فقد اختلفت بعض المصادر والمراجع التاريخية في ذلك ، وإن ما جاء فيها ، لا يعدو إشارات مقتضبة ، يُستشف منها أنها كانت إحدى الديانات الوثنية ، أما أصلها ، فيذكر الخوارزمي أن السمنية هم أصحاب (سمن) ^(٨٠) . ويفهم من كلامه أن سمن هذا ، أحد الأشخاص المهمين ، أو ممن يمتلكون قوة مؤثرة في الناس ، لذلك اتبعوه . بينما يشير ابن النديم أن أتباع هذه الديانة ، ينحدرون إلى نبيهم (بوداسف) * ^(٨١) ، الذي ابتدع ديناً ، يختلف عن الأديان السماوية ، ويدعو إلى عبادة الأصنام ^(٨٢) . وقد أشار أحد الباحثين ، إلى أن السمنية ، ما هي إلا عبادة ظهرت في (سومنات) إحدى قرى الهند ، فنسبت إليها ^(٨٣) ، كما أشار آخر ، أنهم نسبوا إلى صنم كان للهند اسمه (سومنات) ^(٨٤) . وما يهمنا هنا ، هو أنها من الديانات التي ظهرت في الهند ، ثم انتقلت إلى بلاد ما وراء النهر ، بنفس الطريقة التي عبرت فيها البوذية ، أما عن طريق المبشرين ، أو بعض القبائل التي ترعى عند حدود ما وراء النهر الجنوبية ، القريبة من الهند ، فتأثروا بها ، فالتغرز ، هي من قبائل الترك التي اعتنقت هذه الديانة ، ونقلتها أثناء تجوالها إلى بلاد ما وراء النهر ^(٨٥) . إلا أن انتشارها ، كان محدوداً أيضاً ، ولم تكن من الديانات التي أثرت في مجتمع هذه البلاد وغیرت من طبيعته ، وقد يعود ذلك إلى طبيعة المعتقدات والأفكار التي تطرحها السمنية ومبشروها ، فهم يقولون بتناسخ الأرواح ^(٨٦) ، ففي ذلك معنى للجمود والتكرار ، وعدم التجدد في حياة الفرد . كما أن إيمانهم بعدم الرفض ، وقبول حتمية الأشياء والأفعال ، بحيث أن كلمة (لا) عندهم ، تُعد من عمل الشيطان ^(٨٧) ، وفي ذلك ابتعاد عن طبيعة الترك الاجتماعية ، الذين لا يفهمون معنى التنازل وقبول الآخر ، أو رفض ما يكسبونه ، وبذلك انكمشت إلى درجة كبيرة ، وانحسر أتباعها ، ويعزل بارتولد سبب هذا الانحسار ، إلى أن السمنية ، كانت من المعتقدات البدائية التي لا تقوم على أسس أخلاقية ، إذ كان أتباعها من ترك ما وراء النهر ، يرتكبون الجرائم والفصائع تجاه خصومهم وأعدائهم ، وهذه تتنافى مع الطبيعة الإنسانية ، أو ما تقوم عليه بعض الأديان في الحث على احترام الإنسان أو الأسير خلال الحرب ، فقد كان هؤلاء يذبحون من يقع في أيديهم من الأسرى خلال الحروب ، ويقدمونهم قرايين سهلة ، على قبر ملكهم (الخان) ، إذ كانوا يعتقدون بأن القتلى سيصبحون في الحياة الأخرى ، خدماً لقاتلهم ، أو ممن كان القتل باسمهم ، وهذا لا يعني أنهم كانوا يؤمنون باليوم الآخر وبالحساب ؛ بل إن القاتل عندهم كان يعتقد أنه لن يخاف من يوم القيامة إذا حدثت ، بل إن منزلته ستزداد ارتفاعاً بازدياد عدد من قتلهم ^(٨٨) . ويفهم من هذا ، أنهم كانوا لا يعنون بالمحافظة على الجسم الإنساني ، وإن مؤمنهم يجب أن يقدم القرايين باستمرار إلى الآلهة ^(٨٩) ، وهذا الأمر لا ينبع من أسس أخلاقية ودينية ، تختلف بطبيعتها عن مجتمع الترك في بلاد ما وراء النهر ، الذي كان فيه الفرد يحترم الآخر من بني جلدته أو من غيره ، فهم أهل يسار وعفة ومعروف ^(٩٠) ، ولا يمثلون بأسراهم أو قتلهم ، وإن ما أشير إليهم بأنهم كانوا يحرقون جثث قتلاهم في المعركة ^(٩١) ، ما هو

إلا شعورهم بالكرامة تجاه من قتل ، إذ كانوا يرون ان الذل كل الذل هو ان تقع المرأة أو جثة القائد في يد العدو أثناء القتال ^(٩٢) . لذا فان السمنية قد تراجعت إلى حد كبير ، مع رواج الديانة الزرادشتية وتوسعها في بلاد ما وراء النهر ، التي قلصت وحدت من انتشارها ونفوذها ، حتى انجلت إلى مناطق خارج هذه البلاد ، وعبرت نهر جيحون ، نحو خراسان ، لتستقر في مناطق ضيقة لا تتعدى مشارف مدينة بلخ * ^(٩٣) .

ثانياً / المعتقدات ذات الطابع الفارسي

١ - الزرادشتية :

وهي من أشهر معتقدات العالم القديم قبل ظهور الإسلام ، وتُنسب إلى زرادشت * ، الذي يُعد المؤسس الحقيقي للدين الفارسي القديم ، والذي اختلف المؤرخون حول تاريخ مولده ومكانه ، أو اللغة التي كتب فيها كتابه المقدس ^(٩٤) . وقد راجت وانتشرت في بلاد فارس ، وغيرها من المناطق ، بما فيها بلاد ما وراء النهر ، القريبة منها ، على الرغم من ان المصادر التاريخية ، لا تحدد أو تذكر طبيعة هذا الانتشار ، وكيفيته ، إلا ان الظاهر في الزرادشتية ، انها وجدت لها مكاناً في بلاد ما وراء النهر ، حتى استطاعت ان تنمو وتنتشر بقوة ^(٩٥) . ويبدو أيضاً ، أنها قد عاشت جنباً إلى جنب ، مع غيرها من المعتقدات المنتشرة هناك ^(٩٦) ، دون ان تتنافس أو تصطدم بها ، ولربما تعرضت الزرادشتية في بلاد ما وراء النهر ، إلى نفس الانتكاسات التي تعرضت لها البوذية قبلها ، لاسيما وان انتصار الاسكندر عام ٣٣١ ق . م ، على الفرس ، قد أدى إلى انحسار كبير لهذه الديانة ، لكنها عاودت انتعاشها ، في عهد الفرس الساسانيين ^(٩٧) ، لاسيما في عهد الملك اردشير بن بابك (٢٢٤ - ٢٤٢ م) ، عندما اتخذها ديناً رسمياً لدولته ^(٩٨) ، عندما وجد ان تعاليم زرادشت ، كانت تدعو إلى العمل ، وتؤيد النزعات الحربية والقومية ، التي تتسجم مع الميول الطبيعية للفرس ^(٩٩) ، وكانت هذه التعاليم ، قد صبغت هذا الدين بصبغة قوية ميزته عن المعتقدات الأخرى ، حتى عده الفرس ، مظهراً من مظاهر قوميتهم ^(١٠٠) . كما ان جانبها الأخلاقي ، الذي تدعو فيه إلى العدالة ، وعمل الخير ، والعفة ، والإخلاص ، ونقاء الفكر والعمل على تنمية النوع البشري وتقويته ^(١٠١) ، قد عزز انتشارها في بلاد ما وراء النهر ، فلم تلق معارضة تذكر ، لأن تعاليمها ، قد توافقت مع طبيعة الترك ، في ظل الظروف الاجتماعية ، والصراع السياسي القائم بينهم آنذاك ، حتى ان بارتولد ، أكد على سعة انتشار هذه الديانة ، بقوله ؛ ان ديانة زرادشت ، كانت في بلاد ما وراء النهر (أرض الترك) ، هي السائدة ^(١٠٢) ، وربما القوة والانتشار التي رافقت الزرادشتية في بلاد ما وراء النهر ، كانت على عكس البوذية ، التي انتشرت بين قبائل بدوية ، وانها معتقد بدائي ، لا يحمل ثقافة عصره ، بينما انتشرت الأولى ، في المجتمعات المتحضرة . ولعل ما تحث عليه تعاليم الزرادشتية ، في العمل والاستقرار ، والميل إلى ممارسة الزراعة ، هو ما جعلها موضع كراهية من القبائل

المتنقلة ، التي لم تقبلها على نطاق واسع ^(١٠٣) . وقد يكون هذا الأمر قد أوجد نوعاً من الصراع والتصادم القوي ، بينها وبين البوذية ، وقد أشار فامبري إلى ذلك قائلاً ؛ بان الزرادشتية ، خلال فترة انتشارها في بلاد ما وراء النهر ، قد تعرضت إلى ضربة شديدة من قبل البوذية ^(١٠٤) ، ويبدو ان هذا الصراع بين الطرفين يعود إلى الاختلاف في التوجهات والأهداف ، ما بين الدعوة إلى التعددية عند البوذية ، وبين الدعوة إلى التثنية ، وتأيد النزعة الحربية والقومية عند الزرادشتية ، وهذا يتعارض مع التوجه البوذي ، لاسيما وان الديانة الزرادشتية قد اختلفت كلياً مع البوذية في الدعوة إلى التوحيد ، وإبطال الأصنام ^(١٠٥) ، ولعل الاهتمام بالمعنى الإلهي ، وما هو فوق الطبيعة ، واختلاف الثقافات ، هي إحدى النزاعات التي تسيطر على التوجهات الدينية عند الإنسانية ^(١٠٦) . ومن المحتمل جداً ، ان الصراع بين الزرادشتية ، والبوذية في بلاد ما وراء النهر ، قد اتخذ شكل نزاع بين عرقين (فارسي وتركي) ، لا بين عقيدتين ^(١٠٧) ، إذ كان الترك يقاومون ضد الزرادشتية التي دافع عنها الفرس بقوة ، لأنها ديانتهم القومية ، ولربما لم يرغب الترك بدين رسمي يقيد توجهاتهم ، أو يحفز المشاعر القومية ، التي كانت ضعيفة ، إذ لم تظهر لديهم أية نوازع في هذا الاتجاه عبر العصور التاريخية ، ويبدو ان المسعودي ، قد صرح بدقة حول عدم وجود دين رسمي في بلاد ما وراء النهر ، قائلاً ؛ بان أهلها ، ليس لهم دين ، إلا ان منهم من هو على دين المجوس ^(١٠٨) . ويبدو ان قوة الزرادشتية السياسية والقومية وتأيد بعض ملوك الدولة الساسانية لها ، قد عزز نفوذها في بلاد ما وراء النهر ، فأُسست وأنشأت معابدها الخاصة التي تمارس طقوسها الدينية فيها عن طريق القوة السياسية التي تسندها ، وجعل منها ديناً ينفذ بصورة كبيرة داخل المجتمع ، فكانت توجد في مدينة خوارزم معابد لأتباع هذا الدين ^(١٠٩) ، وان معظم أهل مدينة بخارى كانوا مجوساً ، ولهم فيها بيوت نار كثيرة ، وكانت فيها محلة باسمهم هي (محلة المجوس) ^(١١٠) ، وفي قرية رامش * ، كان فيها بيت نار أقدم من بيت نار بخارى ، بناه الملك افراسياب * ^(١١١) ، كما توزعت بيوت النار أيضاً في طوس * وبخارى ^(١١٢) . وعلى الرغم من توزع المعابد وكثرة من اعتنق الزرادشتية من الأهالي ، إلا ان الأخيرة لم تستطع ان تجعل من نفسها في بلاد ما وراء النهر - كما عليه الحال في بلاد فارس - ديناً رسمياً وحيداً ^(١١٣) ، إذ كانت هناك مدن أخرى ، لم تتأثر به ، وكانت نسبة الزرادشتيين فيها قليلة ، فمدينة سمرقند ، لم يكن جميع أهلها من الزرادشتيين ، أما البوذيين فيها ، تكاد تكون أعدادهم معدومة ^(١١٤) . ولعل هذا الأمر هو ما سهل الطريق أمام الدين الإسلامي ان ينفذ دون تعقيد كبير في بلاد ما وراء النهر ، وان المجتمع هناك ، قد قبل هذا الدين على أقل تقدير ؛ بعد عمليات الفتوح الإسلامية التي جرت قبل نهاية القرن الأول الهجري بقليل ، وبدايات القرن الثاني الهجري ، إذ لم تشهد المنطقة تحسناً كبيراً تجاه الدين الإسلامي . إلا ان العباسيين بدعوتهم التي ترعرعت في خراسان فترة طويلة ، وعند إعلان قيام دولتهم عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م ، والتمسك بالدين الإسلامي بوصفه دستوراً لإدارة الدولة ، قد فجرت لدى الزرادشتيين تحسناً

جديداً ، كان من نتائجه ، ظهور حركات معارضة ذات طابع ديني - سياسي ، تدعو إلى العودة للتمسك بالدين القديم والتقاليد الموروثة عنه ^(١١٥) ، وهذا الأمر يُعد تحولاً خطيراً في منهج أتباع هذه الديانة ، التي لم تلجأ إلى استخدام القوة وإعلان الثورة ، بل كانت الظاهرة الأكثر خطورة فيها ، انها استوطنت بلاد ما وراء النهر وانتشرت فيها بدلاً عن خراسان ، وشكل أتباعها حزباً ، جمع حوله كل المتطرفين من المناهضين للدولة العباسية والدين الجديد ^(١١٦) . ولعل الأمر يعود إلى ضعف الإسلام وعدم رسوخه بقوة في بلاد ما وراء النهر ، التي اضطربت أحوالها أثر التحول السياسي في الدولة العربية الإسلامية ، بعد انهيار الدولة الأموية ونشوء الدولة العباسية ، مما كان دافعاً لظهور دعوة عند بعض الممتنعين من سياسة المسلمين لإعلان تمردهم الديني والسياسي ضد الدولة الجديدة . إلا ان استخدام القوة والحزم من قبل الخلفاء العباسيين الأوائل قد حد كثيراً من هذه الدعوات ، ولعل لجوء العباسيين إلى مخاطبة الناس من خلال دينهم ، والتأثير النفسي والقلبي فيهم ، قد ساهم في القضاء على الكثير من هذه الدعوات الدينية ذات الطابع السياسي ^(١١٧) . كما ان لجوء العباسيين إلى إقامة نظام حكم إسلامي يتخذ من الإسلام ديناً ودولة ، والتي يجب ان يرأسها خليفة مسلم ^(١١٨) ، قد قلصت كل محاولات أتباع الديانات الأخرى في إقامة حكم خاص بهم ، لاسيما وان السياسة الدينية التي أتبعها العباسيون ، كانت تهدف بصورة أساسية إلى وحدة الدين الإسلامي من خلال سيطرتها على النواحي الدينية في الدولة ^(١١٩) .

٢ - المانوية :

كان غياب الحكومة المركزية في بلاد ما وراء النهر ، وتغلب سيادة الأسر والأمراء والسادة المحليين ، الذين لم تتجاوز سلطة احدهم أحياناً ، حدود مدينته ، أو قراه ^(١٢٠) ؛ من بين الأسباب التي دفعت بعض المعتقدات المضطهدة ، أو المطاردة في بلدانها ، ان تجد لها ملاذاً آمناً في بلاد ما وراء النهر ، لتنتشر بحرية فيها ، ولعلها أخذت تنافس المعتقدات الأخرى ، فازدادت جراء ذلك حدة التوتر في هذه المنطقة ، إذ كان كل معتقد يحاول ان يسيطر على شريحة كبيرة من المجتمع ، والامتداد فوق رقعة جغرافية واسعة ، لذا نجد ان هذا الأمر قد أشعل الصراع بين الممالك المنتشرة في بلاد ما وراء النهر ، ومما لاشك فيه ، ان وحدة الدين والمعتقد في المجتمع تزيد من تماسكه ، أما اختلافه ، يضعف هذه الوحدة ^(١٢١) ، لذا باتت الحروب والنزاعات ، ظاهرة ملازمة للحياة الاجتماعية ، والسياسية ، للممالك في بلاد ما وراء النهر ^(١٢٢) .

لقد وجدت المانوية طريقها إلى بلاد ما وراء النهر ، اثر الاضطهاد الذي تعرض له (ماني) * وأصحابه في إيران ، على يد الملك الساساني بهرام بن هرمز (٢٧٣ - ٢٧٦ م) ، لاختلافه معهم بما يدعون إليه من معتقد يعارض الزرادشتية ^(١٢٣) ؛ كما وجد المانويون ، بان رجال الدين الزرادشتيين ، قد امتد سلطانهم إلى كل مفاصل الدولة ، فتسببوا بمشاكل للمجتمع الذي بات

يمقتهم ، وبسبب ذلك ، فقد تمهد الطريق أمام الأديان والمعتقدات الأخرى ان تتسلل إلى حياة الفرس (١٢٤) ، في محاولة على ما يبدو ، لخلق نظام اجتماعي جديد ، يقوم على الحرية وترك السيطرة والهيمنة السياسية للدين . وجراء هذا الاضطهاد ، هرب أصحاب ماني ، ممن نجا من القتل والتكيد ، إلى بلاد ما وراء النهر ، كملاذ آمن ، ولربما كانوا خلال إقامتهم فيها ، قد ارتبطوا مع معتقي البوذية بعلاقات ودية ، فقد كانت بينهم قواسم مشتركة ، حول خصومتهم وبغضهم للزرادشتيين ، فمارسوا دعواتهم داخل المجتمع ، حتى آمن بعض أمراء الممالك بهذه الدعوة الجديدة ، التي لم تكن ذات قوة سياسية واضحة (١٢٥) قد يخشاها الأمراء ، مما قوى أمرهم في هذه البلاد (١٢٦) .

لقد كانت المانوية ، كما هو عليه الحال عند البوذية ؛ ترغب ان تنتشر بين جماهير الشعب ، إذ كانت تعاليم الزهد عندها ، موجهة ضد نظام الطبقات ، الذي استندت عليه الزرادشتية ، أما تقاربها مع البوذية ، وتشابهها معها ، فكانت في تعاليمها التي تنص على معاقبة كل من يتناول على المقدسات ، وب نفس الطريقة المتبعة لدى البوذيين ، كما يظهر التقارب بينهما بوجه خاص ، من خلال الاصطلاحات المشتركة التي تدل على انهما كانتا تتأثران ببعضهما ، إلى الحد الذي لم يكن بالإمكان تحديد أيهما أوسع انتشاراً في مناطق ما وراء النهر وبين الترك أنفسهم ، إذ ان كلا الديانتين ، قد صاغت تعاليمها واصطلاحاتها الدينية وفق ما كان منتشرًا في تلك البلاد من لغة ، مما يسهل انتشارها (١٢٧) ، حتى ان العرب في تواريخهم التي دونوها ، لم يستطيعوا ان يفرقوا تماماً بين البوذية ، والمانوية ، فالبعض أشاروا إلى ان المانوية ، كانت منتشرة بين التفرغز وحدهم ، وانها لم توجد عند غيرهم ، بينما يرى آخرون ان المانوية ، حققت انتشاراً واسعاً بين الترك (١٢٨) . وعلى أية حال ، فان انتشار المانوية بين الترك في بلاد ما وراء النهر يعد نجاحاً كبيراً لها ، لاسيما بعد ان امتدت في مناطق السغد المحصورة بين سمرقند وبخارى ، ويبدو ان تأثير السغد الديني على الترك ، كان أقوى وأكثر تنوعاً من تأثير المعتقدات الأخرى في بلاد ما وراء النهر ، كما ان اعتناق الترك للمانوية ، كان ذا أهمية كبيرة في تاريخهم ، فهي تُعد أول معتقد يدخله الترك بوصفهم قومية واحدة بعد السمنية ، بل انها أول معتقد يمتلك أسس أخلاقية ، ففي الوقت الذي كانت فيه السمنية ، ترى ان قتل الإنسان ينفع يوم القيامة ، فان معتقدات ماني لا تكتفي بتحريم قتل الإنسان فحسب ، وإنما تحرم أكل لحم الحيوان (١٢٩) . ويبدو ان هذا الأمر أدى إلى تقوية المانوية عند أهل ما وراء النهر ، وجعلها تصمد أمام الديانات الأخرى التي سبقتها في دخولها إلى المنطقة ، ولعل قوتها الأكثر تماسكاً وتأثيراً في نفوس المجتمع هناك ، ان المانوية أرادت ان تنشئ عقيدة للسلام ذات صفة عالمية ، عن طريق صهر تعاليم المعتقدات والأديان المعاصرة لها ، كالزرادشتية والمسيحية ، ولتنشئ أيضاً ، فكرة سامية ، ألا وهي (التوحيد) ، الذي هو أعلى مطامح الأديان الكبرى كلها (١٣٠) ، ولكننا لم نلمس انها طبقت أو أظهرت هذه الفكرة ، بل ركزت جل اهتمامها على الأشياء اللاحسية ، كوجود قوتين تسييران العالم ، وانها أنكرت نبوة بعض الأنبياء الذين

جاءوا بدينهم السماوي ^(١٣١) ، وفي ذلك بُعد ظاهر عما دعت إليه . ولربما وجد الترك في بلاد ما وراء النهر أمام (عدمية) ماني وزهده ، الذي حرم الزواج انتظاراً ليوم الفناء ^(١٣٢) ، سبيلاً إلى تركها ، كما ان انتشار المانوية الواسع ، قد واجهه ، تذر الشعب هناك ، الذي آمن بها مسبقاً ، لما احتوته من ضعف ، ويأس ، وتشاؤم ، وحرمان من لذات الحياة المباحة ^(١٣٣) ، الأمر الذي مهد الطريق إلى ظهور وانتشار ديانات أكثر إقناعاً ، لتتنصر في بث عقائدها ، أمام معتقدات ، يبدو انها كانت تؤثر سلباً على خصائص الترك العسكرية ، إلا ان ذلك لا يعني انهيار المانوية بصورة كلية ، بل ضلت معتقداتها قوية ، فرضت وجودها على مناطق ما وراء النهر فترة طويلة ، امتدت طيلة العصر الأموي (٤٠ - ١٣٢ هـ / ٦٦٠ - ٧٤٩ م) ، واستمرت خلال العصر العباسي ، حتى عهد الدولة السامانية في خراسان وما وراء النهر (٢٠٤ - ٣٨٩ هـ / ٨١٩ - ٩٩٨ م) ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى ان روح القتال لدى أتباع هذه الديانة ، كانت عالية ، ولم تتضاءل ، على عكس ما اشار إليه بارتولد ، ان المانوية ، قد أضعفت الروح العسكرية عند الترك ، لاسيما قبائل التوغوز ^(١٣٤) ، ومن الواضح ، ان هؤلاء ، كانوا قبل اعتناقهم المانوية ، أمة محاربة بأسلة ، وان الغلبة كانت لهم ، على القبائل الأخرى ، رغم قلة أعدادهم ، فلما دخلوا دين ماني ، بدأوا يذوقون الهزائم ^(١٣٥) . ورغم عدم دقة بارتولد ، إلى حد كبير ، إذ نجد ان الترك بأغلب قبائلهم المحاربة ، قد ظلوا أمة محاربة ، حافظت على روحها القتالية والعسكرية ، رغم التفكك السياسي والديني ، الذي لازم الممالك المتقاتلة في بلاد ما وراء النهر ، والصراع والتنافس القائم بينهم ، حتى ان بعضهم (أتباع المانوية) ، قد تقدم ونشر أفكاره في خوارزم ، رغم قوة الدولة السامانية آنذاك ، التي عارضت انتشار المعتقدات الأخرى ، من اجل نشر الدين الإسلامي ^(١٣٦) . ولعل سبب هذا الانتشار والاستمرار في بث عقائد هذا الدين طيلة هذه الفترة ، يعود إلى حالة السلم والاستقرار الذي شهدته المانوية خلال سيطرة الدولة العربية الإسلامية خلال عصورها المتعاقبة ، على بلاد ما وراء النهر ، إذ لم يحاول أمراء هذه الدولة ؛ استفزاز المانويين ، ماداموا بعيدين عن إثارة الفتن ، ومجابهة الدولة سياسياً ، وعسكرياً ، بل ان بعض أمراء الدولة العربية الإسلامية ، قد اهتموا بأمرهم ، وقد ذكر لنا ابن النديم ، ان خالد بن عبد الله القسري * ، كان من بين ولادة الدولة الأموية الذين اهتموا بأتباع المانوية ^(١٣٧) ، خلال ولايته على خراسان والمشرق (١٠٥ - ١٠٩ هـ / ٧٢٣ - ٧٢٧ م) . ولم تتجلى لنا صورة هذا الاهتمام وصيغته ، إذ ربما كان ذلك في تركهم يمارسون طقوسهم العبادية ، واعتبارهم من أهل الذمة ، ويجب على الدولة العربية الإسلامية حمايتهم ما داموا مسالمين ويدفعون ما فرض عليهم من أموال ، فالسياسة الإسلامية ، كانت تضمن للأقليات الدينية ، كامل حرياتهم المشروعة ، واحترام الرأي الآخر ، ومنح الحريات الكثيرة في مختلف ميادين الحياة الفردية والاجتماعية ^(١٣٨) . أما العباسيون خلال عصور خلافتهم ، قد وجدوا ان قوة الدولة وحيويتها ، يرجع إلى الوضع الذي يجعل من السلطة موحدة داخل الدولة ، فأظهروا حرصهم على الدين الإسلامي وسلامته ، وانهم موحدون له ، من خلال توحيدهم

لسلطة الدولة العباسية^(١٣٩) ، وهذا ما جعل بعضهم يجد في بعض المعتقدات غير الإسلامية ، تشكل تهديداً للدولة ، أو يجب إرغامها على الرضوخ لدين الدولة الجديد ، لاسيما وأن العباسيين كانوا يجدون أن عامل الوحدة اللغوية والدينية ، هي الرابطة الأساسية التي يجب أن تسود الأقاليم والشعوب التي ضمتها دولتهم^(١٤٠) ، فعندما حكم السامانيون خراسان وما وراء النهر ، تغيرت أوضاع المانوية في بلاد ما وراء النهر خاصة ، لاسيما وأن السامانيين قد عرفوا بتدينهم وتمسكهم بالعقيدة الإسلامية ، وكانوا يتصدون لكل الدعوات والمعتقدات الدينية التي لا تتفق وروح الإسلام ، أو تلك التي تقوم بنشاط ديني في ولاياتهم التي يحكمونها ، وبالأخص بلاد ما وراء النهر ، التي تُعد مركزاً لسلطاتهم المحلية^(١٤١) . وقد أشار ابن النديم إلى حادثة غاية في الأهمية ، تدل على صورة المعاناة والاضطهاد والمطاردة والخوف التي واجهها المانويون في بلاد ما وراء النهر من العباسيين ، إذ يقول " وآخر ما انجلوا في أيام المقتدر ، فانهم لحقوا بخراسان خوفاً على نفوسهم ، ومن تبقى منهم ستر أمره وتقل في هذه البلاد ، وكان اجتمع منهم بسمرقند نحو خمسمائة رجل ، فاشتهر أمرهم ، وأراد صاحب خراسان قتلهم ، فأرسل إليه ملك الصين - وأحسبه صاحب التغرغز - يقول ان في بلادي من المسلمين أضعاف من في بلادك من أهل ديني ، ويحلف له ، ان قتل واحد منهم ، قتل الجماعة به ، واضرب المساجد ، وترك الأرصاء على المسلمين في سائر البلاد ، فقتلهم ، فكف عنهم صاحب خراسان وأخذ منهم الجزية ... " ^(١٤٢) .

ويبدو ان هذه الحادثة التي جرت خلال حكم الولاة السامانيين على خراسان وما وراء النهر ، تدل على قوة المانويين وعمق نفوذهم الديني والسياسي ، فضلاً عن وضوح مدى التعصب الديني لدى كل طرف سياسي تجاه الآخر . وقد بذل السامانيون - باعتبارهم حماة للدين الإسلامي - جهوداً واضحة في تثبيت حكمهم والدفاع عن عقيدتهم الدينية ، ففي أواخر عهد الأمير الساماني إسماعيل بن أحمد * (٢٧٥ - ٢٩٥ هـ / ٨٨٨ - ٩٠٧ م) ، أي مع نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وبدايات القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، شهدت بلاد ما وراء النهر صراع هذا الأمير مع الترك ، إذ عمل إسماعيل بن أحمد على درء خطرهم وتثبيت أمرهم عندما تجمعوا لقتاله ، واستطاع ان يقضي عليهم مع بقية الحشود التي كانت تساندتهم من أبناء جلدتهم^(١٤٣) . ولعل ارتباك الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر آنذاك ، اثر الصراع بين السامانيين المسلمين ، وبين الترك الوثنيين ، قد ولد وضعاً مريباً وغير مريح للمانويين ، لاسيما وأن إسماعيل بن أحمد قد ظن انهم يشكلون خطراً على سلامة الدولة ، باعتبارهم ليسوا مسلمين ، لاسيما وأن أغلب الترك في بلاد ما وراء النهر ، كانوا يميلون إليهم ويعتقون ديانتهم ، لذا عكف على مطاردتهم وملاحقتهم ، حتى تشتت أمرهم ، وتفككت وحدتهم ، ويبدو ان هذا الأمير الساماني ، قد ارتكب خطأ سياسياً تجاههم عندما تعقبهم ، واضطهد أتباع المانوية ، إذ لم تشر المصادر التاريخية المتوفرة إلى انهم التحقوا بالترك ، أو انهم شاركوا معهم في القتال ضد المسلمين ، بل كانوا عكس ذلك ، ففي رواية ابن النديم ، نجد ان بعضهم قد اجتمع في سمرقند ، بينما انسحب

البعض الآخر منهم نحو خراسان^(١٤٤) ، وهي من مناطق نفوذ السامانيين وولايتهم ، ولعل ميل المانويين إلى الهدوء والابتعاد عن الاصطدام السياسي مع القوى المتنفذة ورغبتهم عن الدخول في أي نوع من القتال ، وتلافياً لاضطهادهم من قبل الترك ، نراهم يتوجهون إلى مناطق أكثر هدوءاً وأمناً كخراسان ، التي شهدت استقراراً يختلف عن مناطق بلاد ما وراء النهر ، التي بدت تشهد صراعاً سياسياً بين الترك والسامانيين ، اثر موت الأمير إسماعيل بن احمد ومجيء ابنه الأمير احمد بن إسماعيل ، حاكماً على خراسان وما وراء النهر (٢٩٥ - ٣٠١ هـ / ٩٠٧ - ٩١٣ م) ، إذ استغل الترك بعض الأوضاع السياسية التي مر بها السامانيون ، والصراع الأسري داخل البيت الساماني طمعاً في السيادة والحكم^(١٤٥) ، فكان ذلك دافعاً أجج أطماع الترك لتوسيع نفوذهم في بلاد ما وراء النهر ، الأمر الذي سمح لهم ان يفرضوا شروطهم ووصايتهم على المانويين ، غير ان نزوح المانويين ، نتيجة هذا الصراع وتوجههم نحو سمرقند ، قد وضعهم موضع الشك والالتهام من قبل الأمير الجديد احمد بن إسماعيل ، لاسيما إذا عرفنا ان سمرقند آنذاك قد استولى وسيطر عليها عمه اسحق بن احمد ، الذي تمرد على ولاية ابن أخيه احمد بن إسماعيل^(١٤٦) ، لاسيما وان نزوح المانويين الى سمرقند ، المتمردة آنذاك وبهذه الأعداد الكبيرة نسبياً ، سيشكل خطراً دينياً على هذا الأمير فيما لو استغل وجودهم عمه اسحق ، ليستميلهم إليه ، ويعزز مكانته عن طريق تأثيرهم الديني على الترك ، فيقوى أمره بهم ، وإلا ما الذي يفسر إشارة ابن النديم بان صاحب خراسان آنذاك ؛ وهو احمد بن إسماعيل ، أراد قتلهم^(١٤٧) ، لولا خطورة دعوتهم وقوتهم الدينية وتأثيرهم على مجتمع ما وراء النهر ، فباتوا يهددون سلامة دولته وولايته عليها ، غير انه أمام خطورة الموقف والمشاكل السياسية التي أحاطت به آنذاك جعلته يكتفي بفرض الجزية عليهم واعتبارهم ضمن رعايا الدولة ، وهذا الأمر قد يُعزى إلى محاولة السامانيين ، ورغبتهم في إقرار الأمن والنظام في بلاد ما وراء النهر ، والولايات التابعة لهم . ويبدو ان المانويين ، لم تكن لهم قوة دينية مؤثرة في البلاد ذات النفوذ الإسلامي ، فانحسر تأثيرهم إلى درجة كبيرة ، لاسيما قبيل منتصف القرن الرابع الهجري بقليل ، أي مع تنامي قوة البويهيين على البلاد الإسلامية (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، ولعل المشاكل السياسية ، والاضطراب الديني والاجتماعي ، قد حدوا من انتشارهم وضعف تقبل الناس لأفكارهم ، لذا بات مسرحهم الديني لا يتعدى مناطق محددة من بلاد ما وراء النهر ، إذ انحصر نفوذهم في سمرقند ، وبالأخص مدينة بنونكت* ، التي كانت تعد مركزاً دينياً لهم^(١٤٨) ، ولربما توجهت أنظار العالم الإسلامي ، إلى الخطر الجديد المتمثل بالبويهيين ، وما رافقهم من مشاكل سياسية ودينية ، ألقت بظلالها على الخلافة العباسية متناسين الأقاليم الشرقية ، فقوي أمر المانويين خاصة في بلاد ما وراء النهر ، وظلوا محتفظين بنفوذهم الديني هناك فترة طويلة ، لذا يمكن القول ان انتشار المانوية في بلاد ما وراء النهر ، وقوة نفوذهم داخل مجتمعها ، قد رسخ تأثير المدنية الإيرانية في بلاد ما وراء النهر ، التي

أخذت محل المدنية الهندية التي كانت سائدة هناك ، والتي يبدو انها شهدت تراجعاً واضحاً مع ظهور المانويين خلال عصور الدولة الساسانية ^(١٤٩) .

ثالثاً / اليهودية والمسيحية وعبادة الظواهر الطبيعية

يمكن ان تعد هذه الأديان والمعتقدات، من بين الملل التي انتشرت في بلاد ما وراء النهر بصورة ضيقة ، ولم تكن ذات شأن ، وذلك لانعزالها وتوقعها لاسيما ، اليهودية ، والمسيحية . فالأولى يبدو انها نزحت إلى بلاد ما وراء النهر عن طريق بلاد فارس ، نحو خراسان ، إذ يعود وجودهما في تلك المناطق إلى عصور قديمة منذ عام ٥٩٧ قبل الميلاد تقريباً ، ويبدو ان أوضاعهما كانتا جيدة ، في البلاد التي تغلغت إليها ، مع تعاقب الدول التي سيطرت على تلك المناطق ^(١٥٠) . وبالرغم من بعض الإشارات القليلة في المصادر التاريخية ، عن وجود اليهودية في بلاد ما وراء النهر ، واعتناق بعض الترك لها ^(١٥١) ، إلا ان دورها يبدو محدوداً ، إذ لم نعثر في المصادر التاريخية إلى إشارات عن أماكن عبادتها مثل بقية المعتقدات ، على الرغم من الأمن الاجتماعي والديني الذي لاقته هذه الديانة عبر حقبة زمنية طويلة ، امتدت منذ عصر الدولة الساسانية والعصر الأموي ، والحماية والرعاية التي شهدتها معتقوها في ظل الدولة العباسية ، قياساً عما كانوا عليه في العصر الأموي ^(١٥٢) ، ولعل هذا الأمر يعود إلى ان اليهودية ، ومن خلال الرعاية التي تلقتها ، قد ركزت وجودها وثباتها في مراكز المدن الكبرى ، والقريبة من مصادر الحكم والنفوذ ، حيث الازدحام السكاني والثقافة المدنية ، والاستقرار السياسي ، لتحاول ان تنشر تعاليمها بقوة وثبات ، ويبدو ان اليهودية لم تحقق ذلك في بلاد ما وراء النهر ، إذ لم يكن لها تأثير ديني ، ولم يدعوا أتباعها إلى نشر ديانتهم ^(١٥٣) .

أما المسيحية ، فيشير بارتولد انها دخلت إلى بلاد ما وراء النهر بنفس التاريخ الذي دخلت فيه المانوية ، أي ابتداء من القرن الثالث الميلادي ، واشتركت مع المانوية بقاسم مشترك واحد ؛ هو ان كليهما حاول نشر الثقافة والأبجدية اللغوية الخاصة به ^(١٥٤) ، وقد بدأ المبشرون بالمسيحية ، يبذلون نشاطاً في أوساط شعب بلاد ما وراء النهر ^(١٥٥) ، إلا ان هذا النشاط فيما يبدو ، لم يحقق نتيجة ملموسة ، ولم تعزز المسيحية قوتها الدينية ، بقوة سياسية ، وان أتباعها تركزوا كجاليات ومجموعات دينية كبيرة خارج مناطق ما وراء النهر ، فمارسوا دورهم في تلك المناطق بصورة أفضل ، قياساً لتلك البلاد ^(١٥٦) ، لاسيما وان المسيحية ، لم تستطع ان تنافس البوذية والزرادشتية اللتان تمكنتا من السيطرة على بلاد ما وراء النهر ، وان المسيحية جاءت متأخرة قياساً للفترة التي دخلت فيها البوذية والزرادشتية بلاد ما وراء النهر ^(١٥٧) ، إلا انها مع ذلك استطاعت (المسيحية) ان تثبت وجودها في بلاد ما وراء النهر ، ونستطيع ان نلمس ذلك من المعابد التي أشارت إلى وجودها بعض المصادر ، التي انتشرت في عدد محدود من مدن بلاد ما وراء النهر ، فهناك كنيسة ، أشار إليها البشاري المقدسي في مدينة ميركي * ، التي تحولت فيما بعد إلى مسجد جامع ^(١٥٨) ، ويبدو ان تحولها إلى سيطرة المسلمين ، لم يكن بتأثير

سياسي ، لاسيما إذا عرفنا ان أهل الذمة ، كانوا يحضون بالاحترام والمعاملة الحسنة من قبل المسلمين (١٥٩) . وقد يكون للأوضاع السياسية والعسكرية في بلاد ما وراء النهر ، والصراع المستمر ، أثر أدى إلى هجرة الكثير من أتباع المسيحية إلى مناطق أكثر استقراراً ، أو لأنهم وجدوا ان معابدهم التي أنشأوها هناك ، لم تحقق لهم التأثير الديني والتبشيري في ذلك المجتمع ، الذي أثرت فيه تيارات دينية قوية منذ عصور قديمة ، لذا ليس من السهل تبديل عقيدة هذا المجتمع ، فتركت معالم هذه الديانة وهُجرت ، فاستغلها المسلمون لصالحهم .

أما عبادة الظواهر الطبيعية ، لاسيما الكواكب ، فهي من المعتقدات القديمة عند بعض الشعوب ، ممن كانوا يظنون انها أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، فعظموها ، وقربوا إليها القربان ، لتنفعهم ، وبنوا الهياكل ، بيوتاً للعبادة فيها ، وسموها بأسماء تلك الكواكب . ان هذه العبادة ليست من الأديان ، بل تعد ظاهرة دينية أشارت إليها بعض المصادر التاريخية ، وعلى الرغم من عدم اتساعها في بلاد ما وراء النهر ، إلا انها كانت من بين المعتقدات التي استطاعت ان تستميل بعض شعوب تلك البلاد ، ولا نعلم الكثير عن معالم هذه العبادة وطقوسهم سوى ما أشارت إليه بعض المصادر بان في فرغانة ، كان هناك هيكلًا للعبادة ، سمي على اسم المدير الأعظم من الأجسام السماوية وهو الشمس (١٦٠) ، ويبدو انه لم يتواجد مثله في مناطق ما وراء النهر ، سوى في فرغانة ، وهذا يعني انها من بين العبادات التي كانت محدودة الانتشار ، وفي منطقة جغرافية بعيدة عن مراكز الحكم والنفوذ .

رابعاً / الإسلام :

يمكن القول ، ان الدين الإسلامي ، كان من أحدث الأديان التي دخلت بلاد ما وراء النهر ، إذ سبقته معتقدات وأديان كثيرة كما مر بنا . وكان لولاة الدولة الأموية ، دورهم الواضح في فرضه هناك ، لاسيما من خلال العمليات العسكرية التي رافقت الفتوح الإسلامية لمدن بلاد ما وراء النهر ، والتي مهدت السبيل لدخول العرب والإسلام لتلك المنطقة . إلا ان المعلومات عن طريقة التبشير بالإسلام ونشره تكاد تكون شحيحة ، إذا ما قورنت بأخبار الحروب والغزوات بين العرب والترك هناك . ومما لاشك فيه ان تثبيت قواعد الدين الإسلامي ، سوف تواجهه تيارات دينية وعقائد متعددة ، رسخت وانتشرت بين المجتمع في بلاد ما وراء النهر ، إلا ان العرب المسلمين ، وبالرغم مما عانوه هناك ، استطاعوا بعد جهد متواصل ، تثبيت الإسلام ونشره ، وليصبح فيما بعد ، الدين الأساسي الذي طغى وتغلغل بين شعوب المدن والقرى في تلك البلاد . ولعل إجراءات الأمويين وولاتهم ، خلال العمليات العسكرية (الفتوح) ، كان لها دور فاعل في اعتناق السكان المحليين ؛ الإسلام وبصورة مضطربة ، كما ان الإسلام باعتباره ديناً جديداً ، قد واجه المعتقد الأكثر انتشاراً هناك ، إلا وهو - الزرادشتي - الذي ظل ثابتاً في أغلب مفاصل الحياة الاجتماعية هناك ، فكانت المجوسية واسعة الانتشار حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ،

مقارنة بالمناطق التي كانت فيها نسبة المسلمين قليلة^(١٦١) ، ويمكن القول ان ما عزز قوة الإسلام ونشره ، هو بعض الإجراءات الإدارية التي قام بها ولاة الدولة الأموية ، فكان قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي خاض حروبه في بلاد ما وراء النهر بدءاً من عام ٨٧ هـ / ٧٠٥ م^(١٦٢) ، قد حقق أسلوباً متميزاً في نشر الإسلام ، ألا وهو ، بناء المساجد ، وإسكان العرب في المدن ، ودور المبشرين من رجال الدين ، الذين رافقوا العمليات العسكرية ، لنشر الوعي الديني وفق متطلبات التوجه السياسي للأمويين . فعندما صالح قتيبة أهل سمرقند ، اشترط عليهم ان يصلي داخل المدينة ، فدخلها واتخذ فيها مسجداً ، كما قام بإسكان العرب المسلمين فيها ، وخلف فيها جماعة من المسلمين ، فيهم ، الضحاك بن مزاحم * - صاحب التفسير -^(١٦٣) ، ولعل هذه الإجراءات ، سوف تترك لدى السكان المحليين ، تأثيراً كبيراً ، يمهّد الطريق في تقبل الإسلام والانضمام إليه^(١٦٤) ، كما ان ما قام به قتيبة ، من إخراج الأصنام من بيوت العبادة في سمرقند ، وإحراقها^(١٦٥) ، قد ترك أثره الإيجابي في نفوس معتقلي هذه الديانة ، الذين كانوا يعتقدون بحرمة أصنامهم ، وخشيتهم منها ، ألا ان إجراء قتيبة هذا ، قد بدد ما اعتقدوه ، وكسر نوازع خوفهم واحترامهم لها ، لذا يبدو انهم قد اقتنعوا بالدعوة الجديدة ، فكان من أثر ذلك ، ان توالى بناء المساجد في بعض المدن ، التي أخذت تحل محل بيوت النار ، فمنذ عام ٩٤ هـ / ٧١٢ م توالى بناء المساجد في بخارى ، إذ استطاع قتيبة ان يبني في حصنها مسجداً بعد ان كان بيتاً للأصنام^(١٦٦) ، ويبدو ان قتيبة ، استطاع ان يوجه تلك المساجد ، لتكون مركزاً للثقافة العربية ، ومناصب لغرس الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، كما كانت عليه نيسابور * ومرو في خراسان^(١٦٧) ، بل انه شدد على إظهار شعائر الدين الإسلامي ، وألزم السكان المحليين بأحكام الشريعة الإسلامية ، وعاقب كل من قصر في ذلك ، وأمر الناس بأداء صلاة الجمعة^(١٦٨) . فتدافع الناس إلى اعتناق الإسلام ، ويبدو ان دخولهم في الدين الإسلامي خلال هذه الفترة ، لم يكن عن قناعة كاملة ، فلربما اعتنقه البعض عن رضا وطوعية ، بينما كان البعض الآخر قد اعتنقه رهبة من بطش السلاح^(١٦٩) ، ولعل هذه الإجراءات التي قام بها الولاة الأمويين في فرض الإسلام ببلاد ما وراء النهر ، قد أبطأت انتشاره ، لاسيما وان إجراءاتهم في أخذ الجزية ، كضريبة فرضت على غير المسلمين من أهل الذمة ، قد شملت حتى من أسلم ، درءاً للعجز المالي الذي كانت تمر به الدولة الأموية ، ولهذا كانت مخالفة عمر بن عبد العزيز - بوصفه خليفة للمسلمين - هذه السياسة ؛ خطوة كبرى في نشر الإسلام وإقبال الناس عليه لاسيما في بلاد ما وراء النهر ، فقد كان الطابع السياسي لعمر بن عبد العزيز ، فيما يبدو ، هو التضحية بكل مظاهر الغلبة والسلطان ، إذا كان في ذلك كسب للمسلمين^(١٧٠) ، وقام بإقناع الرعايا غير المسلمين للدخول في الإسلام ، وكتب إلى ملوك ما وراء النهر ، يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم^(١٧١) ، كما قام اشرس بن عبد الله السلمي * ، خلال ولايته على خراسان وما وراء النهر (١٠٩ - ١١١ هـ / ٧٢٧ - ٧٢٩ م) ، بدعوة أهل الذمة من سمرقند وباقي بلاد ما وراء النهر إلى الإسلام ، ووجه إليهم المبعوثين من أهل الورع والفضل ،

يدعوهم إلى الإسلام^(١٧٢) . كذلك قام الخليفة الأموي، هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢ م) ، بدعوة أهل ما وراء النهر ، إلى الإسلام ، وأمر بطرح الجزية عمن أسلم ، فسارعوا إلى الإسلام^(١٧٣) . ولعل هذا التسامح ، لاسيما في الجانب المالي ، كان له أثره الكبير في تهيئة أهل ما وراء النهر نفسياً لاعتناق الإسلام ، فقد ترك العرب للإسلام ، الفرصة ان يلتقي سلمياً بالمعتقدات الأخر ، كما أتاح لها ؛ مجالاً لمقارنة ما فيها ، مع ما جاء به الإسلام وتعاليمه^(١٧٤) ، ويبدو ان تأثير الإسلام ، بات واضحاً على المجتمع في بلاد ما وراء النهر ، إذ اتخذ بعضهم أسماء وألقاباً عربية للمحافظة على أوضاعهم ، أو زيادة حقوقهم ، ومثال ذلك ؛ قتيبة بن طغشاد (ملك بخارى) ، الذي أسماه أبوه ، تيمناً باسم قتيبة بن مسلم الباهلي الذي فتح مناطقهم^(١٧٥) ، ولعل هؤلاء الترك ظنوا ، ان استعراهم على هذا النحو ، قد يزيد قوة اتصالهم بالدولة ، فتزداد امتيازاتهم . ومما لا شك فيه ، ان هذه السياسة قد تسلمت إلى نفوس الطبقة العليا من المجتمع ، فأسلم الكثير من أفرادها ، واتخذوا أسماء عربية . ولعل عملية الدخول في الإسلام ، كان يعطي حق المواطنة في الدولة العربية الإسلامية ، ويتيح للمسلمين الجدد من الترك ، ان يشتركوا في النشاط السياسي للدولة ، الذي ينعكس أثره على النشاط الاقتصادي لهم ، دون أدنى شك^(١٧٦) . كما ان انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر خاصة ، سوف يحقق تقدماً اقتصادياً كبيراً للدولة ، عن طريق السيطرة على أهم الطرق التجارية التي تمر عبر بلاد ما وراء النهر ، إلى بلدان العالم آنذاك ، على عكس المناطق الغربية في الدولة العربية الإسلامية ، التي ظلت مصدر قلق دائم للسلطة الإسلامية ، لاسيما في عهود الخلفاء العباسيين^(١٧٧) . ولربما كانت النظرة التي يرى بها الترك ؛ المسلمين ، قد اختلفت عن غيرها من أصحاب المعتقدات الأخر ، فقد كانت القيم الأساسية في المجتمع الإسلامي ، تترسخ في عدم التمييز بين الناس حسب ألوانهم وأجناسهم ، فركزت هذه النظرة ، أساس التعاون بين الجماعات الإسلامية الجديدة ، وكانت سبباً في احترام عقائد الآخرين ودينهم^(١٧٨) . ويعتقد احد الباحثين ، ان الفتح العربي الإسلامي ، وتثبيته ، سيما في بلاد ما وراء النهر ، كان من أهم الأحداث في تاريخ الإسلام ، إذ كان مقدمة لانتشاره هناك ، بل هو أكثر أهمية من فتح الاسكندر المقدوني ، لتلك البلاد ، لاسيما وان الثقافة اليونانية ، قد تركت أثراً سرعان ما تلاشى وانتهى ، بينما الفتح الإسلامي ، ونشر الثقافة الإسلامية ، تركا أثراً ظلت بصماته واضحة طيلة قرون عديدة ، فللمرة الأولى تتحد كل مناطق الأجناس المختلفة (الترك ، الفرس ، الهنود) في ظل دولة واحدة ، هي الدولة الإسلامية ، بل ان هذا الفتح ، أتاح للثقافة الإسلامية ، فرصاً أوسع في الانتشار ، بعد ان استطاع العرب ، ان ينشروا ثقافتهم ولغتهم هناك^(١٧٩) ، ومما ساعد العرب المسلمين في مدّ الثقافة الإسلامية ، ونشر الإسلام ، ان هذه البلاد لم يكن لها دين موحد يجمعها ، أو ان ديناً معيناً كان يقتصر على فئة اجتماعية معينة ، وفي منطقة جغرافية محددة ، لذا فالدين الإسلامي ، لم يجد مقاومة كبيرة هناك من الناحية الدينية^(١٨٠) . وقد زاد الخلفاء العباسيون خلال عصرهم السياسي الأول (١٣٢ - ٢١٨ هـ /

٧٤٩ - ٨٣٣ م) ؛ التيار الإسلامي سعة وعمقاً في أصقاع دولتهم ، وذلك بفضل السياسة الخارجية التي اختطوها لأنفسهم ، بعد ان استقرت أوضاعهم السياسية الداخلية ، فاهتموا ببلاد ما وراء النهر ، اهتماماً بالغاً ، إذ دافعوا عن الإسلام هناك ، وصدوا عدوان الترك الشرقيين ، وابعدوا الصينيين عن التدخل في شؤون تلك البلاد ^(١٨١) ، الذين استغلوا الاضطرابات السياسية اثر انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين . ويظن احمد أمين ، ان العباسيين كان لهم اثر واضح في دخول أعداد كبيرة من الترك إلى الإسلام ، وانهم بذلوا في هذا الباب جهداً أكثر من الأمويين ، إذ صبغوا دولتهم بصبغة دينية ظاهرة ، ونظر الناس إليهم كأنهم حماة للإسلام والمسلمين ^(١٨٢) ، ولعل ذلك ، هو ما اثر بصورة فاعلة في نظرة أهالي بلاد ما وراء النهر ، الذين اعتقدوا انهم وجدوا الأمان الديني في ظل الدولة الجديدة . ويبدو ان التقاليد الدينية في مجتمع بلاد ما وراء النهر ، لم تكن من العمق والأصالة ، ولم تكن مستعصية الجذور والتعصب بما يمددها لمقاومة التيار الإسلامي ^(١٨٣) ، الأمر الذي بدا عليه ، ان الترك في بلاد ما وراء النهر قد فهموا روح الدين وتوافدوا عليه ، ولم يظهروا ما اظهر الفرس من شدة الميل إلى ابتداع المذاهب المعادية للإسلام ^(١٨٤) . ففي عهد الخليفة العباسي محمد المهدي ، أسلم ملك قبائل الخرخ (جبغويه) ، في بلاد ما وراء النهر ^(١٨٥) ، وعلى الرغم من المشاكل التي أثارها هذا الملك تجاه الدولة العباسية ، إلا ان اعتناقه الإسلام ، دليل على خضوعه واستسلامه وتأثره بقوة الدين الجديد . كذلك اهتم الخليفة عبد الله المأمون ، بتوسيع دولته وفرض الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، إذ وجد ان سيطرته على الترك ، تيسر له جمع رجال يتميزون بالكفاءة القتالية ، ولم تدخلهم الأهواء ، ولم يتعرضوا للانقسامات السياسية والعقائدية التي انتشرت في أقاليم مختلفة من دولته ^(١٨٦) ، فقد كان الخليفة ، يكتب إلى عماله في خراسان ، بغزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر ، وكان يستميلهم بالرغبة ، فان وردوا بابيه ؛ شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم ، كالذي حصل مع حيدر بن كاووس - ابن ملك اشروسنة - الذي ورد بغداد ، وأعلن إسلامه ، فأكرمه المأمون وأحسن مقامه وأرجعه إلى مدينته ملكاً عليها ولقبه بـ (الافشين) * ^(١٨٧) . ولعل ما يسر تحقيق سياسة المأمون تلك ، ان الترك لم تكن لديهم ميول ثقافية عميقة يمكن ان يتمسكوا بها ، فقد كانوا شعباً بدوياً تتنازع الصراعات والتكتلات السياسية ، والانقسامات القبلية ، لذا لم يصعب على الإسلام بخصائصه الثقافية المتميزة ، ان يؤثر في نفوسهم ، وينتشر بينهم ، لاسيما وان الدين الإسلامي كانت تسنده دولة قوية امتازت بتوفير حرية الاختيار للناس ^(١٨٨) . وربما كان هذا السلوك الديني - السياسي ، الذي اتخذه المأمون يعود لأغراض دعائية ، هدفها نشر الإسلام أولاً ، ثم السيطرة على شعب بلاد ما وراء النهر عن طريق استمالتهم بالصلوات والمناصب ، إذ ان ذلك يولد نوعاً من الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وبالتالي حصول السلطة الدينية ، المتمثلة بالخليفة ؛ على الطاعة والشرعية ^(١٨٩) . وقد سار على هذا النهج ، الخليفة المعتصم بالله ، الذي أظهر نفسه بمظهر المدافع عن الدين وعلى سلامة الدولة وصيانة المبادئ والمثل الدينية والإسلامية ، وهذا ما

جعله يلتفت إلى ضرورة تعزيز الدور الديني الإسلامي في بلاد ما وراء النهر ، لأهميتها الكبيرة في تقوية النظام الجديد في الدولة العباسية ، لذا صار جل شهود عسكره من أهل ما وراء النهر ، من السغد والاشروسنية ، وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ، وغلب الإسلام على ما هناك ^(١٩٠) . ويبدو ان سياسة المعتصم تلك ، قد رسخت الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، إذ صار الترك أنفسهم يتبنون حركة الجهاد ونشر الإسلام بين جيرانهم الترك ، حتى ان البلاذري أشار إلى ذلك قائلاً : ان أهل تلك البلاد صاروا يغزون من ورائهم من الترك ، ففتح المعتصم ، مواضع لم يصل إليها احد قبله ^(١٩١) . ولا بد ان يتبع انتشار الإسلام في هذه الصورة ، ان تغلغت اللغة العربية إلى جانب الثقافة الإسلامية ، وبرزت مراكز دينية مهمة ، تبنيتها مدارس الحديث والفقه ، في بخارى ، وسمرقند ، اللتان أصبحتا مركزاً للعلم والثقافة الإسلامية ، واللذان ازدهرتا في عهد ولاية خراسان وما وراء النهر من الطاهريين (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٢ م) ، والسامانيين . ولعل الجهود التي بذلها من اعتنق الإسلام من أهالي بلاد ما وراء النهر ، في نشر الثقافة الإسلامية قد وضحت تماماً وإلى درجة واسعة . ولعل مراجعة كتب الطبقات والحفاظ والفقهاء واللغويين والنحاة والمفسرين ، سنجد بلا شك ، مادة غزيرة ، تلقي بضوئها على الجهود التي بذلها أبناء هذه البلاد في مجال الدين الإسلامي ، إذ برز الكثير من أبناء مدن ما وراء النهر كالفرغاني والبخاري والاشروسي والترمذي وغيرهم ، فترتب على ذلك ، سيادة اللغة العربية ، وقيام وحدة ثقافية ، شارك في صنعها وتغذيتها هؤلاء العلماء ورجال الأدب من أهالي تلك البلاد ، الذين اعتنقوا الإسلام ^(١٩٢) . ويبدو ان التأثير الديني للإسلام كان أعمق وأرسخ عن غيره من الأديان ، وما يميزه في ذلك ، انه كان مدنياً بثقافته ، وانه انتشر في المراكز التمدنية الكبيرة والمهمة ، كبخارى ، وسمرقند ، وفرغانة ، كما ان رعاية الدولة للإسلام ، بوصفه الدين الرسمي لها ، سوف يعزز مكانة هذا الدين ويطبعه بطابع القوة والحماس ، فالاهتمام والرعاية وتحقيق العدالة والمساواة في الحقوق بين جميع الناس ، كان منوطاً بالدولة التي يمثلها الخليفة ، وليس مقروناً بقوة فئة دون أخرى ، أو جماعة دون جماعة ، لذا تمسكت به شعوب ما وراء النهر ولازمته ، فمن دون أدنى شك ، ان وحدة الدين في المجتمع تزيده قوة وتماسكاً ، بينما اختلافه يضعف هذه الوحدة . كما ان الإسلام يُعد نظاماً اجتماعياً ، ومجموعة من القواعد والتشريعات ، التي استطاع الناس ان يتعايشوا بمقتضاها ، ومن هنا كان الإسلام ، ديناً وحضارة كاملة ، ونظاماً جامعاً استطاع مد أقاليم المشرق بما فيها بلاد ما وراء النهر ، بمقومات الدول وأساليب السياسة والحياة والتشريع والحضارة ^(١٩٣) . ومنذ قيام الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر عام ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م * ، فان نفوذ الترك أخذ يقوى ويشد داخل الدولة العباسية ، فهم سيشكلون الحرس في قصور ملوك بخارى ، كما قام آخرون ، بمهام تجارية مع القبائل المتاخمة أو المنافسة لهم ، بل ونجد آخرين منهم ، يتوجهون للمرابطة والتصدي لأخطار الترك المشتركين ممن لم يدخلوا الدين الإسلامي ، الذين

يحاولون السيطرة وغزو بلاد ما وراء النهر ^(١٩٤) ، ولعل من نتائج تلك المراقبة ، هو ما قام به الترك المسلمون من نشر الإسلام فيما بعد ، حتى وجد طريقه إلى الصين ^(١٩٥) .

المظاهر الدينية :

يمكن ان نفهم طبيعة أي معتقد أو دين ، عن طريق القديمة، مأخوذة من عناصره المشتركة ، والمتعلقة ببعضها ، ألا هو ، الشعور الديني ، الذي يترجم بأعمال مختلفة ؛ كتقديم القرابين ، والفكر الديني ، والعبادة أو الشعائر ^(١٩٦) . فالقرابين تؤلف جزءاً مهماً من عبادة الأمم القديمة ، بل تكاد تكون العلامة الفارقة عندهم للدين ، ويقاس تدين الرجل وتعلقه بآلهته ، وتذكره لها ، وان يضعها دائماً نصب عينيه ؛ عن طريق تقديم القرابين لها . وربما كانت تلك الأمور ، من العبادات العملية ، كالصلوات ، لأن الإنسان القديم ، لم يكن يفهم وقتذاك من الحياة ، إلا مفهومها المادي ، وهو يرى ويدرك ، ان ما يقدمه من هدايا لآلهته ومعبوداته ، يؤثر في نفسه كثيراً ، وقد يتصور بأعماقه ، ان القرابين ، هي أوقع في نفوس آلهته من أي شيء آخر ، فقدمها على كل شيء آخر ، وجعلها عبادة يتقرب بها . إذن هي في نظره ، عبادة تقربه إلى الأرباب ^(١٩٧) . وقد أشارت بعض المصادر التاريخية ، إلى عدد من المظاهر الدينية التي كان يقوم بها أتباع الديانات في بلاد ما وراء النهر ، فقد كان المجوس الزرادشتيين ، يعظمون إحدى القلاع الموجودة في بخارى ، لوجود قبر سياوش بن كيكاس * ، الذي كان يُجل ويقدس من قبل الأهالي ، لأنه يمثل رمزاً دينياً لهم . ومن مظاهر تعظيمهم وإجلالهم لهذا القبر ، كان كل رجل يأتي لزيارته ، يحضر عند مطلع رأس كل سنة فارسية ، فينحر ديكاً نذراً له قبل طلوع الشمس أول هذه السنة (النوروز) . وقد تعود مجوس بخارى ان يقيموا في ذكرى هذا الأمير المقتول ، نياحات وفي مختلف المدن ، ولهم أناشيد ينشدونها ، يطلق عليها اسم (نواح المجوس) ^(١٩٨) . ولا نعلم ، هل كانت طريقتهم في العبادة هذه ، قد تأثرت بمؤثرات مجتمعات أخرى خارج بلاد ما وراء النهر ، أم انها طريقة محلية ، اعتاد عليها الناس وأصبحت ضمن عاداتهم الدينية ، وشعائهم التي ميزتهم عن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، لاتستند إلى فلسفة دينية معروفة . أما معتنقو ديانة الظواهر الطبيعية ، كالشمس ، والقمر ، وبعض الكواكب ، فقد كانت لهم طريقتهم الخاصة بهم في تقديم القرابين ، ففي مدينة فرغانة ، كان أصحاب هذه الديانة ، يجتمعون في هيكلم الذي يطلق عليه (هيكل عطار) ، عند كل يوم أربعاء من أيام الأسبوع ؛ ويتصرفون بطريقة ، تكاد تكون بشعة ، إذا ما قورنت مع غيرها من العبادات الأخرى ، إذ يجلبون شاباً أسمر متأدب ، فيزيلون عقله ويخرسونه ويجلسونه أمام الصنم ، فيتلون صلواتهم ، ثم يقومون بقطع جسم ذلك الشاب إلى قسمين طولاً وعرضاً ، ثم يربعونه ، ويرفعون كل قطعة على خشبة ، ويضرم فيها النار ، حتى يحترق مع الخشب ليصبح رماداً ، وبعدها يضربون بالرماد ، وجه الصنم المصنوع من معادن متنوعة ، وفخار صيني مجوف ، ثم يلقون في جوف هذا الصنم زنبقاً كثيراً ^(١٩٩) . ورغم ما تطبعه تلك الصورة من قسوة وبشاعة في أداء مراسيم القرابين ،

إلا أننا يمكن أن نفهم أن تلك الطريقة ، كانت تتلخص بتقديم أسرى الحرب كقرايين بشرية ، لآلهتهم ، أو ربما بالقرب من قبر ملكهم أو سيد قومهم ، إذ كانوا يعتقدون أن القتلى سيصبحون عبيداً ، لمن كان القتل باسمهم (٢٠٠) . وقد يكون أصحاب هذه الديانة ، قد تأثروا ببعض العقائد أو الطرق التي يتبعها معتقو السمنية ، الذين آمنوا بطريقة تقديم القرايين بتلك الصورة ، ولعل هؤلاء ، مزجوا أفكار عباداتهم ما بين الكواكب ، وما بين عدم الرفض ، والقبول بكل ما يجري على الإنسان ، وما بين عبادة الأصنام ، إذ يظهر أيضاً ، أنهم تأثروا بالبوذية ، التي تعتقد بالوثنية . وقد تكون معابدهم قد تركت وهاجرها أصحابها ، لتستغل من قبل أصحاب عبدة الكواكب ، وطوروها لتلائم عقائدهم ، التي يظهر فيها ، أنهم لا يحترمون حياة الإنسان ، وأن هذه الديانة ، لم تقم على أسس أخلاقية (٢٠١) ولعل هذه القيم التي لا تقوم على فلسفة فكرية ، أو طريقة محترمة في العبادة هي ما جعلت الخليفة العباسي المعتصم بالله ، ينظر إلى تلك المعابد ، على أنها وسيلة بعيدة عن احترام الذات ، ومخالفة للشرائع السماوية ، ولم تكن حضارية ، بل كانت عقائد بدائية ، فقام بهدمها دون غيرها من المعابد الأخرى (٢٠٢) . وقد أشار المسعودي والبكري إلى أن أخبار هدم هذا المعبد قد فصلت في كتاب (أخبار الزمان) الذي صنفه المسعودي ، ولكن عند مراجعتنا لهذا الكتاب ، لم نعث على ما أشار إليه في ذلك (٢٠٣) وقد يعود ذلك ، إلى عمليات النسخ والتصحيح الراجحة آنذاك ، فيضيع أو تهمل أو تحرف بعض أصول الكتب .

ومن المظاهر الدينية الأخرى التي عرفت عند هؤلاء ، أن لديهم أياماً معينة من آخر إحدى أشهرهم يسمى (آخسوم) ، وهذه الأيام معظمة لديهم ، فكان أهل السغد ، يبيكون وينوحون على موتاهم ، بل يبلغ الأمر بهم أحياناً ، أن يقوموا بقطع أجزاء من وجوههم حزناً على الميت ، الذي كان يضعون إلى جانب قبره ، الأطعمة والاشربة أيضاً (٢٠٤) . إذ كانوا يعتقدون أن الميت كان يأكل ويشرب مثلهم (٢٠٥) . أما الأعياد ، فلم تتطرق المصادر التاريخية إلى ذكرها ، سوى بعض الإشارات القليلة ، فقد أشار البيروني ، أن أهل خوارزم وجميع أهل ما وراء النهر ، كانت لهم أعياداً يعظمونها قبل الإسلام ، وأن لهم أشهراً مقدسة خلال السنة ، إذ كانوا يزعمون أن الله تعالى ، قد أمرهم بتعظيمها (٢٠٦) . وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن أغلب هذه المظاهر ، قد انحسر العمل بها مع انتشار الإسلام في تلك النواحي ، وانتهت بصورة كبيرة ، بل أن الإسلام بثقافته ومعتقداته ، قد أثر كثيراً على من لم يعتنقه أيضاً ، فعندما زار ابن فضلان بلاد ما وراء النهر ، خلال رحلته إلى بلاد الترك ، عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م ، أي في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وجد أن بعض قبائل الغز المنتشرة في بلاد ما وراء النهر ، يرددون قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، رغم عدم معرفتهم بالإسلام ، ويقولون ذلك تقريباً بهذا القول ، إلى كل من يجتاز بهم من المسلمين ، وليس اعتقاداً منهم بذلك ، حتى أنهم كانوا يستحسنون من يقرأ لهم القرآن ويعجبون به ويحبونه (٢٠٧) . إذ بدا ذلك واضحاً على أثر الدين الإسلامي على حياة هذه البلاد ، وبات فيه الدين الإسلامي ، يعد ديناً شاملاً ، أحاط بكل أطراف المجتمع

وطبقاته ، وانه استطاع بفضل قوته الثقافية والعقائدية ، ان يذيب المعتقدات والأديان الأخرى ، ويفرض وجوده على الحياة العامة هناك ، حتى أضحي الدين الأساسي والرئيسي في بلاد ما وراء النهر .

الخاتمة ونتائج البحث

تبين من خلال البحث ، ان بلاد ما وراء النهر ، تمتلك مساحة جغرافية واسعة ، تطل على ثقافات وشعوب متنوعة ، وانه تأثرت إلى درجة كبيرة بما يحيط بها ، فانقلبت إليها الأفكار والمعتقدات الدينية لتجد لها في مجتمع تلك البلاد أرضاً خصبة ساهمت في نشرها ، إذ بدا واضحاً ان بلاد ما وراء النهر ، كانت تستقطب تلك الثقافات ، ولم تظهر فيها أي معتقد أو دين وطني أو قومي، لذا بدا الصراع واضحاً بين أصحاب هذه المعتقدات وبين من ينافسهم ، إلا ان هذا الصراع لم يتخذ طابعاً قومياً ، أكثر منه طابعاً سياسياً ، ويتضح من خلال تلك المعتقدات ما يلي :

- ١ - انها كانت متعددة ومتنوعة ، ولم تؤثر في فئة اجتماعية دون أخرى .
- ٢ - في مجتمع بلاد ما وراء النهر ، بطابعه البدوي وتنوعه الاجتماعي والثقافي، فان تلك المعتقدات ، تعجز ان تفهم طبيعة هذا المجتمع ، فتصطدم بالكثير من المشاكل معه .
- ٣ - ان أوسع المعتقدات انتشاراً في بلاد ما وراء النهر ، هي الزرادشتية ، ويعود سبب ذلك إلى القوة السياسية التي تدعمه ، والتي كانت تسند دعواتها السياسية بطابع ديني ، واستطاعت ان تؤثر في شعوب تلك المنطقة وتكسب إليها الكثير من المؤيدين .
- ٤ - ظهر ان الإسلام من بين أكثر الأديان في بلاد ما وراء النهر ، قوة وانتشاراً وتأثيراً وامتداداً ، حتى تهافت عليه الكثير من الترك واعتنقوه ، إذ كانت للإجراءات الصارمة والشديدة ، التي استخدمها ونفذها أمراء الدولتين ، الأموية والعباسية ، أثرهما الواضح في فرض الإسلام في بلاد ما وراء النهر ، فاعتنق كثير من أهالي تلك البلاد الإسلام أما رهبة ، أو رغبة في الحصول على المكاسب والامتيازات التي باتت تجذب الكثيرين منهم للانتفاع من هذا الدين الجديد وحضارته ، التي لم تُمح آثارها حتى وقتنا الحاضر .